السياسة في لبنان: الطائفة السنية وتيار المستقبل بزعامة الحريري

تقرير الشرق الأوسط رقم 96 – 26 أيار/مايو 2010



جدول المحتويات

تقرير الشرق الأوسط رقم 96 **26 أيار/مايو 2010**

السياسة في لبنان: الطائفة السنية وتيار المستقبل بزعامة الحريري

الملخص التنفيذي

يمثل استلام سعد الحريري، رئيس تيار المستقبل السني، مهام منصبه كرئيس للوزراء في حزيران/يونيو 2010، نقطة تحوّل. يعتبر هذا التاريخ نهاية لمرحلة من الاضطرابات السياسية غير العادية والتوترات الدولية التي بدأت مع اغتيال والده، رفيق الحريري؛ والتي أفضت إلى شلل مؤسساتي وبلغت أوجها في المواجهة العنيفة التي نشبت بين الموالاة والمعارضة في أيار/مايو 2008. إذاً، يطرح هذا الحدث على رئيس الحكومة الجديد جملة من التحديات المستجدة. لا بد للرجل الذي وصل إلى زعامة الطائفة السنية، والتي عانت في مرحلة سابقة انقسامات عميقة، من أن يتخلى عن الكثير من العوامل التي مكنته من الوصول إلى السلطة إذا أراد أن ينجح في مهمته هذه. عليه أن يبتعد مع حزب الله، الحركة الشيعية الرئيسية، عن الطائفية التي باتت العملة الرائجة في لبنان. على تيار المستقبل أن يصبح حزباً حقيقياً ومؤسساتياً بدرجة أكبر وأن يتحول عن الزبائنية التي استفاد منها بلا شك، لكن التي يمكن أن تعوق تحوّل رئيس الوزراء من زعيم طائفة إلى رجل دولة. كما ينبغي على الحريري أن يستمر في سلوك الدرب الصعب المتمثل في تطبيع العلاقات مع سورية، وأن يتغلب على انعدام الثقة بين قاعدته الشعبية في لبنان من جهة ودمشق من جهة أخرى.

عندما اغتيل والده، ورث سعد الحريري مهمة شبه مستحيلة؛ فقد كان الأب شخصية بالغة القوة والتأثير: كان في الوقت نفسه رجل أعمال ناجحاً، دبلوماسياً، سياسياً ورجل دولة. مع خروج لبنان قبل سنوات من الحرب الأهلية الدموية، كافح الحريري ليكون منقذ بلاده. لم يكن بالطبع منزّهاً عن الأخطاء ولم يعدم المنتقدين. كان ثمة العديد من الذين ينتقدون بشدة نزعته إلى خلط مصالحه الخاصة بالشؤون العامة. غير أن قلائل فقط كانوا يشككون في خصاله القيادية، وقدرته على الترفع – في معظم الأحيان – عن السياسات الطائفية، وانخراطه بنجاح في علاقات دولية متناقضة.

في مماته، كما في حياته، كان رفيق الحريري شخصية تجاوزت أبعادها ونفوذها حدود لبنان. سورية، التي اعتُبرت على نطاق واسع مسؤولة عن الجريمة، واجهت ضغوطاً دولية مكثفة. وأجبرتها المظاهرات غير المسبوقة على سحب قواتها بعد ما يقارب ثلاثين عاماً من وجودها في لبنان. لقد أثار موته المخاوف العميقة والكامنة للطائفة السنية، مثلما أثار الغضب من السيطرة السورية ثقيلة الوطأة وعدم الارتياح الناجم عن الإحساس بالهشاشة والضعف. وتمخضت تلك المشاعر عن تضامن غريزي طاغ بين السنة الذين احتشدوا حول ابن رفيق الحريري، الأمر الذي أفضى إلى تحولات في التحالفات الإقليمية والدولية. لقد تحالفت الطائفة مع أعدائها التاريخيين المتمثلين في الأحزاب المسيحية المناهضة لسورية، وتحولت ضد حليفها التقليدي، دمشق؛ إذ رأت في صراعها معها الآن صراعاً بين رؤيتين متضاربتين للبلاد. وللمرة الأولى في تاريخها، اتجهت هذه الطائفة إلى الغرب الذي رأت فيه شريكاً في معركة حياة أو موت ضد سورية وحزب الله وإيران.

كان التحول الأكثر بروزاً في المواقف السنية منذ عام 2005 هو تفاقم المشاعر المذهبية والعدائية المتزايدة حيال الشيعة. هكذا طفت توترات الماضي التي ظلت- في معظم الأحيان- كامنة تحت السطح. وحتى عندما كان يُعبَّر عن هذه العدائية، كان يتم احتواؤها بسرعة. كان ثمة عدد من نقاط التحول تمثلت في اغتيال الحريري؛ وما تلاه من إظهار تعاطف حزب الله وحركة أمل مع سورية؛ وحرب عام 2006 مع إسرائيل التي حمّل العديد من السنة مسؤوليتها لحزب الله والتي أبرزت القوة العسكرية المثيرة للقلق التي يتمتع بها الحزب الشيعي؛ وأخيراً سيطرة حزب الله السريعة على العاصمة في أيار/مايو 2008 والذي شعر السنة أنه كان بمثابة هزيمة مذلة.

تمثلت الحصيلة الإجمالية لهذه التطورات في تعزيز هيمنة تيار المستقبل على الطائفة السنية، من جهة، وسيطرة الحريري على تيار المستقبل من جهة أخرى. صُعِقَ السنة من قرار حزب الله توجيه سلاحه إلى الداخل، فاتحدوا جميعاً خلف تيار المستقبل. وبات يُنظر إلى أي انشقاق على أنه يرقى إلى الخيانة. في حزيران/يونيو 2009، ونظراً للإقبال السني الكبير على الانتخابات، فاز التيار في الانتخابات النيابية. فوز بدا انعكاساً للتضامن المذهبي، معلناً سعد الحريري زعيماً سنياً أوحد.

غير أن الانتصار الواضح لتيار المستقبل أسهم أيضاً في إحداث تغيرات محلية وإقليمية مهمة. لقد أزال قبول سورية بنتائج الانتخابات واختيار الحريري رئيساً للوزراء العقبات من طريق المصالحة السعودية – السورية التي كانت بدأت في وقت سابق من السنة. شجعت الرياض تطبيع العلاقات بين سورية ولبنان، خصوصاً عبر ضغطها على الحريري لزيارة دمشق، وهي الزيارة المثقلة بالاعتبارات العاطفية والسياسية. حالما جرى انتخاب سعد الحريري، سارع إلى مد يده إلى المعارضة، التي ردت على مبادرته بالمثل. مبادرة أتاحت له قيادة حكومة وحدة وطنية تبدو قدرتها على العمل مرهونة بالإجماع.

والآن، لكي يتمكن الحريري من الحكم بشكل ناجح، عليه أن يدفع هذا التطور خطوة أخرى إلى الأمام. لا يزال هناك المزيد مما ينبغي فعله من أجل عكس النمو في المشاعر الطائفية وتعميق عملية تطبيع العلاقات السورية اللبنانية. سيكون على الحريري أن يتخلى عن موقعه بحكم الأمر الواقع كزعيم سني ويوزع سلطاته على التيار الذي ينبغي أن يصبح أكثر مؤسساتية، أي تحويله إلى حزب يقوم على آليات صنع قرار واضحة وخاضعة للمساءلة، وإطار سياسي واضح وكوادر احترافية، وأيضاً على هيئات دينية بحاجة إلى مزيد من الإصلاح وتعزيز قدرتها على إدارة شؤون الطائفة ومنع انحدارها نحو التطرف. وفي الإطار عينه، سيترتب على الحريري أن يبتعد تدريجياً عن السياسة الطائفية والزبائنية التي اتبعها التيار بشكل كبير خلال السنوات الخمس الماضية. لا شك في أن إحدى تبعات هذه العملية سيتمثل في ظهور قدر أكبر من المنافسة من خصومه السنة وفقدان هيمنته الكلية، غير أنه – وعلى افتراض تراجع التوترات الطائفية – فإن هذه التبعات أمر محتوم. إذا كانت الغاية هي تحقيق الاستقرار في لبنان وتعزيز إنمائه والحؤول دون عودته إلى الاقتتال الطائفي، فإن هذا ثمن سيتحتم على الحريري دفعه. كما ستكون هذه أفضل طريقة يتّبعها للمحافظة على العناصر الأكثر تميزاً في الإرث الذي تركه والده.

بيروت، بروكسل، 26 أيار/مايو 2010

السياسة في لبنان: الطائفة السنية وتيار المستقبل بزعامة الحريري

I. مقدمة

يواجه سعد الحريري، الذي ورث عن والده عباءة زعامة لبنان والطائفة السنية، مهمة لا يحسد عليها. يتمثل التحدي الأول الذي يواجهه في عكس عملية التماهي والتعبئة على أساس مذهبي، وهي العملية التي خدمته بشكل جيد في السنوات الأخيرة – وتتوجت في فوزه الحاسم في الانتخابات التشريعية التي جرت في 7 حزيران/يونيو 2009 – لكنها لا يمكن أن تظل الدعامة السياسية الرئيسية التي يعتمد عليها. وحيث أنه يرأس حكومة وحدة وطنية، فإن رئيس الوزراء يمكنه أن يحكم بكفاءة فقط إذا تمكن من تقليص خطوط التماس الطائفية والسياسية التي فرضت هيمنتها حتى الآن. لن يكون ذلك سهلاً. لعب تحديه ورفضه لحزب الله الشيعي ولسورية وإيران دوراً حاسماً في صعود نجمه، وأكسبه دعماً محلياً ودولياً قوياً. كما أن العوامل المحلية والإقليمية الكامنة التي تغذي هذه المشاعر لم تحسم بعد، مما يجعل من الصعب على الحريري دفع قاعدته السنية إلى الاعتدال أو اجتذاب داعميه الدوليين إلى موقعه الجديد.

ما يضاعف في الصعوبات الداخلية والخارجية التي يواجهها الحريري – وما يمثل التحدي الرئيسي الثاني بالنسبة له – هو أن كلا الساحتين تظلان غير مستقرتين وعرضة للتحول والتغير بدرجة كبيرة. تمثل الخطوات الأولية التي اتخذها الحريري للتطبيع مع دمشق رهاناً ضرورياً لكنه ينطوي على قدر من المخاطرة. لا زال العداء لسورية بين سنة لبنان، المقتنعون بدور نظامها في اغتيال رفيق الحريري والغاضبون بعد عقود من الهيمنة السورية متجذراً؛ كما أن العديد من داعمي لبنان الخارجيين لا زالوا قلقين من الدور الإقليمي الذي تلعبه دمشق. وما من شك في أن البلدين سيواجهان عقبات هائلة في مسعاهما للوصول إلى علاقات متوازنة. ومن شبه المؤكد أن استئناف الأعمال العدائية بين إسرائيل ولبنان – وهو احتمال لا ينبغي استبعاده – سيؤدي إلى إعادة إثارة القضية الإشكالية المتعلقة بسلاح حزب الله، والتي تم وضعها جانباً منذ تشكيل الحكومة اللبنانية الجديدة.

التحدي الثالث الذي يواجه الحريري يتمثل في أنه يقود حكومة وحدة وطنية، غير مسبوقة في العديد من أوجهها، وبالتالي فإن استدامتها غير مؤكدة. تاريخياً، كان لبنان يحكم من قبل ائتلافات موسعة. غير أن هذه كانت تنطوي على ترتيبات غير متوازنة لتقاسم السلطة تؤدي فعلياً إلى سيطرة بعض الأحزاب السياسية على حساب أحزاب أخرى. على النقيض من ذلك، فإن الحكومة الحالية تعكس بصدق التوازن الفعلي للقوى. وبما أن الحكومة أتت حصيلة مأزق وشلل سياسي طويلين، فإن عليها أن تثبت قدرتها على تقديم شيء مختلف. بعبارة أخرى، وحتى على افتراض امتناع اللاعبين الخارجيين عن التدخل الهدام، فإن النظام السياسي الغير فعال يمكن أن يولّد ما يكفي من الأزمات والمآزق بشأن قضايا جوهرية في الحكم، وهو ما سيجعل الأولوية التي وضعها الحريري لنفسه، والمتمثلة في الانتعاش الاقتصادي، حلماً بعيد المنال.

وأخيراً، فإن تيار المستقبل – الذي ازداد نفوذه وبروزه في ظروف تعبئة مذهبية استثنائية – يواجه عودة ظهور مشهد سني أكثر تشظياً وتنوعاً. تسعى الزعامات المحلية والحركات الإسلامية إلى إعادة فرض سيطرتها، وتشكك في زعامة الحريري أو تقاوم سيطرته. إن وجود طائفة سنية أكثر تعددية وتنوعاً لن يكون بالضرورة أمراً سيئاً، على أساس أنه يمكن أن يشير إلى التحول نحو سياسة أكثر سلمية وأقل استقطاباً. غير أنها يمكن أيضاً أن تعقد من مهمة رئيس الوزراء بشكل هائل.[1]

[1] لمراجعة تحليل إضافي للسياسة في لبنان، انظر:
Crisis Group Middle East Reports N°87, *Lebanon's Elections: Avoiding a New Cycle of Confrontation*, 4 June 2009; N°78, *The New Lebanese Equation: The Christians' Central Role*, 15 July 2008; N°69, *Hizbollah and the Lebanese Crisis*, 10 October 2007; and Middle East Briefing N°23, *Lebanon: Hizbollah's Weapons Turn Inward*, 15 May 2008.

II. الطائفة السنية في عهد تيار المستقبل

أ. رفيق الحريري: نشوء التيار والمشروع

كان رفيق الحريري شخصية بالغة النفوذ والجاذبية قل نظيرها على الساحتين اللبنانية والإقليمية.[2] كان يمتلك حساً سياسياً حاداً تعود جذوره إلى طفولته المسيسة والفقيرة في صيدا.[3] كان رجل أعمال حاذقاً جمع ثروة هائلة في السعودية في قطاعي الإنشاءات والأشغال العامة؛ وأصبح بحلول سبعينيات القرن العشرين أحد أهم رجال الأعمال وأقربهم إلى العائلة المالكة.[4] كما كان دبلوماسياً موهوباً تمكن من إقامة طائفة واسعة من العلاقات المتناقضة في كثير من الأحيان، مضطلعاً بدور الوسيط أو الميسِّر في العديد من المفاوضات الدقيقة والمعقدة.

بحلول السبعينيات، وفي أوج الحرب الأهلية، ركز انتباهه بشكل أكبر على بلاده، مستخدماً هذه الخصال الثلاث التي يتمتع بها. كانت ثروته الهائلة تموّل جملة من الأنشطة الخيرية التي كانت تستهدف السنة بشكل رئيسي، لكنها تعود بالفائدة على الطوائف الأخرى أيضاً.[5] ساعدت هذه الأنشطة في التعويض عن قصور الدولة ومنحته قاعدة اجتماعية هامة في هذا النظام الذي يتسم بالزبائنية إلى حد بعيد.[6] قام بتأسيس شبكة مستقلة تقدم التعليم، والرعاية الصحية، والوظائف، والأغذية والمساعدات المالية، كما شرع في استمالة البنى الموجودة أصلاً بشكل تدريجي.[7] على عكس جميع السياسيين الآخرين في لبنان تقريباً، لم يكن رفيق الحريري في موقع يمكنه ببساطة من تحويل عراقته العائلية إلى قوة سياسية. بدلاً من ذلك، عمل بجد على تحقيق نفوذه من خلال نظام متميز لإعادة التوزيع الاجتماعي.

طوّر الحريري في نفس الوقت صلات مع صناع القرار الرئيسيين ليس فقط في لبنان والسعودية،[8] بل في سورية،[9] وفرنسا[10] والولايات المتحدة.[11] بين عامي 1983 و 1984، وخلال جهود الوساطة في جنيف ولوزان، كان المبعوث السعودي الرسمي للرياض إلى لبنان. وحتى اليوم، يعترف العديد من الزعماء اللبنانيين بمساهمة الحريري في التوصل إلى اتفاق الطائف الذي أفضى في النهاية إلى وقف الحرب الأهلية في العام التالي.[12]

في ذلك الوقت، كان الحريري قد رسخ وجوده كزعيم سني هام: فقد ساعد الطائفة في الحصول على حصة أكثر إنصافاً من السلطة من خلال اتفاق الطائف، وبحكم وفاة عدد من الزعماء السنة خلال الحرب، فقد تمكن من ملء الفراغ. أحد مراقبي المشهد السني قال:

> قتل العديد من ممثلي الطائفة السنية خلال الحرب، ومن بينهم الشيخ صبحي صالح؛ وناظم القادري (نائب)؛ ورئيس الوزراء رشيد كرامي؛ والمفتي حسن خالد. هذه الاغتيالات تركت السنة دون حماية، وأكثر تشظياً، وتهميشاً، وأكثر عرضة من غيرهم من الطوائف ذات الهيكليات الأقوى. كان السنة مستبعدون بدرجة كبيرة من الحياة السياسية، خلال الاتفاق الثلاثي عام 1985 على سبيل المثال.[13] أما مع رفيق الحريري، فقد بات بوسع الطائفة استعادة بعض مجدها الغابر.[14]

---

[2] يمكن قراءة السيرة الذاتية الرسمية لرفيق الحريري على الموقع: www.rhariri. com/general.aspx?pagecontent=biography

[3] فيما يتعلق بهذه الفترة من حياته، انظر: Nicolas Blanford, *Killing Mr. Lebanon*, (London, 2009).

[4] Marwan Iskandar, *Rafic Hariri and the fate of Lebanon*, (London, 2006); Georges Farchakh, *Alfadel Chalaq: My Experience with Hariri*, (Beirut, 2006).

[5] Georges Farchakh, *Alfadel Chalaq*, op. cit., pp. 210-221.

[6] أسس الحريري جمعيته الأولى في لبنان عام 1979، التي عرفت في حينه باسم جمعية الثقافة والتعليم. لكن أعيدت تسميتها لتصبح مؤسسة الحريري. وقد اشتهرت هذه المؤسسة بشكل رئيسي بتقديمها المنح الدراسية لأكثر من 30,000 طالب خلال الحرب.

[7] تتمتع الجمعيات غير الحكومية والمنظمات الاجتماعية بأهمية خاصة بالنسبة للطائفة السنية، كما شرح أحد النشطاء: "كان رفيق الحريري يتمتع بسيطرة كاملة على السكان السنة في بيروت. لدى هؤلاء ذكريات سلبية للغاية عن الأحزاب السياسية والميليشيات. إنهم ينظرون إلى الجمعيات والمنظمات الاجتماعية بطريقة مختلفة. فهناك تتشكل النخب، وهناك تبدأ باكتساب السلطة السياسية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 11 آذار/مارس 2008. بين المجموعات التي بسط الحريري سيطرته التدريجية عليها كان اتحاد جمعيات العائلات البيروتية. كانت الجمعية قد تأسست في عام 1960، فأعاد الحريري إحياءها في عام 1997 بغية تعبئة الناخبين استعداداً لانتخابات عام 2000 البرلمانية. كانت حينذاك تمثل حوالي 20 بالمئة من المقترعين المحتملين في بيروت. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع وليد كبة، مستشار سابق للحريري، بيروت، 26 نيسان/أبريل 2010. مثال آخر كان جمعية المقاصد، وهي أول جمعية خيرية سنية أسستها عام 1878 مجموعة من الوجهاء المحليين. كرّست الجمعية نفسها للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، فبنت المدارس، وبيوت الأيتام والمستشفيات. في عام 1997، بدأ الحريري بتمويل عدد من مؤسساتها. انظر: www.hariri foundation.org.lb/adopt.htm. وتكرر نفس النمط مع العديد من الجمعيات في بيروت وصيدا. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت وصيدا، آذار/مارس 2009.

[8] يذكر أنه طور علاقات وثيقة على نحو خاص مع الأمير بندر بن سلطان، الذي كان حينذاك سفيراً للسعودية في الولايات المتحدة، وسعود الفيصل، وزير الخارجية. انظر: Marwan Iskandar, *Rafic Hariri*, op. cit., p. 51.

[9] يذكر أن الحريري كان قريباً من عبد الحليم خدام، وزير الخارجية السوري ومن ثم نائب رئيس الجمهورية السابق؛ وحكمت الشهابي، رئيس الأركان الأسبق، المرجع السابق، ص. 50. كما يذكر أن الحريري كان ومنذ مطلع الثمانينيات قد وطد علاقاته مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد. انظر: Ghassan Charbel, *The Palace Malediction*, (Beirut, 2008), p. 223

[10] نشأت بين الحريري وجاك شيراك صداقة وطيدة عندما كان الأخير رئيساً لبلدية باريس.

[11] Marwan Iskandar, *Rafic Hariri*, op. cit., p. 51.

[12] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين لبنانيين، بيروت، طرابلس، صيدا والبقاع، 2008-2009. يؤكد مروان اسكندر أن اتفاق الطائف كتبه الحريري. المرجع السابق، ص. 51.

[13] تم التوصل إلى الاتفاق الثلاثي مع سورية بدعم من الزعيم الدرزي وليد جنبلاط، ونبيه بري، زعيم حركة أمل الشيعية؛ وإيلي حبيقة، قائد أحد فروع القوات اللبنانية. كان الاتفاق محاولة فاشلة لوقف الحرب الأهلية.

[14] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عبد الغني عماد، مدير المركز الثقافي للحوار والدراسات، طرابلس، 7 نيسان/أبريل 2009.

رغم اتهامه من قبل بعض المسيحيين بمحاباة المصالح السنية،[15] فقد قدم الحريري نفسه على أنه فوق السياسات الطائفية، وكان الآخرون يعتبرونه كذلك إلى حد ما. أحد المؤشرات على ذلك أنه، ورغم تطويره علاقات مع مختلف الحركات الإسلامية، فإن العديد منها كانت تنتقده لعدم مساعدتها بما يكفي أو لأنه لا يظهر ما يكفي من الولاء الطائفي.[16] لقد سعى، بدلاً من ذلك، لتقديم نفسه كرجل دولة وكمنقذ لأمة أدمتها حرب أهلية طويلة وخربها التضخم الهائل الذي أدى إلى انهيار المستويات المعيشية والخدمات العامة وانخفاض قيمة الليرة اللبنانية.[17] أثبتت الحكومة الأولى التي تشكلت بعد الحرب أنها كارثية، ثم انهارت بسبب الاحتجاجات وأحداث الشغب العامة. وبدلاً منها طرح الحريري أجندة إعادة بناء طموحة، تدعمها ثروته الشخصية واتصالاته الدولية.[18] وأصبح رئيساً للوزراء في عام 1992.[19]

شرع الحريري، وبسرعة كبيرة، في معالجة الوضع الاقتصادي. ساعد في تحقيق الاستقرار للعملة، وتحرير الاقتصاد، وتحفيز الاستثمار، وإعادة بناء مؤسسات الدولة وإعادة تأهيل البنية التحتية العامة. ومضى إلى أبعد من ذلك، فسعى لاستعادة موقع لبنان في المشهدين العربي والدولي، وكشف عن مشروعه الذي يتمثل في تحويل بيروت إلى عاصمة إقليمية رئيسية. أحد المقربين منه قال: "كان حلمه في أن يعود لبنان مرة أخرى القلب النابض للمنطقة، وجسراً بين الشرق والغرب، وملاذاً لرأس المال العربي. أراد إحياء صورة لبنان على أنه سويسرا الشرق الأوسط".[20]

واجه الحريري ثلاث عقبات هامة. أولاً، بما أن الرؤية كانت رؤيته، فإن الحد الفاصل بين السياسة العامة والمصالح الشخصية كان ينزع إلى التلاشي أحياناً.[21] ونتيجة لذلك، تعرض للاتهام بأنه يعزز مصالحه في الأعمال على حساب الصالح العام، وخصوصاً عندما اضطلعت الشركات التي يملكها جزئياً أو كلياً بأشغال عامة هائلة – ليس دائماً بشفافية تامة.[22] وكان هذا مصحوباً في كثير من الأحيان بانتقادات قوية لسياسته الاقتصادية التي تتمثل في تحرير الاقتصاد واتباع سياسة نقدية تهدف إلى تحقيق استقرار سعر الصرف، وهو ما اعتبر ذا كلفة اجتماعية باهظة[23] وحمل نفقات عامة كبيرة أثقلت كاهل البلاد بالديون.[24]

ثانياً، كان مشروعه يعتمد إلى حد بعيد على السياق الإقليمي وخصوصاً على تجنب اندلاع حرب عربية إسرائيلية جديدة. كان ذلك ضرورياً من أجل ضمان اجتذاب لبنان للاستثمارات، ورجال الأعمال والسواح.[25] في مطلع التسعينيات، بدا ذلك ممكناً. وضعت الحرب الأهلية أوزارها، وتم إطلاق عملية السلام بين العرب وإسرائيل، وبدا أنه تم احتواء كلاً من العراق وإيران، وتحسن التنسيق الثلاثي بين السعودية، ومصر وسورية بشكل كبير. في عام 1996، استعمل الحريري شبكة علاقاته الإقليمية والدولية لإنهاء عملية "عناقيد الغضب" التي شنتها إسرائيل على لبنان.[26]

غير أنه في عام 2000، تراجعت الآمال واكفهر الأفق مع انهيار المفاوضات الإسرائيلية – السورية والإسرائيلية – الفلسطينية واندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية، التي تبعها انتخاب جورج دبليو بوش في

---

[15] Crisis Group Report, *The New Lebanese Equation*, op. cit., pp. 2-3.

[16] أحد المثقفين الإسلاميين ذوي الارتباط بالجماعة الإسلامية قال: "لهذا السبب لم يحقق مع السنة ما حققه حزب الله مع الشيعة، أي قاعدة طائفية موحدة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، تموز/يوليو 2006. زعم نشطاء إسلاميون أنه لم يقدم دعماً سياسياً كافياً لأولئك الذين كانوا ضحايا الاعتقال، والاضطهاد، والتعذيب على أيدي أجهزة الأمن اللبنانية والسورية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ سلفيين، ومسؤولين في الجماعة الإسلامية، ونشطاء إسلاميين، بيروت، طرابلس، وصيدا والبقاع. أيار/مايو 2006 – أيلول/سبتمبر 2009.

[17] Boutros Labaki, "L'Economie politique des 'guerres pour les autres' (1975-1990). Les pertes", in F. Kiwan (ed.), *Le Liban aujourd'hui*, (Paris, 1994).

[18] لعب الحريري دوراً محورياً في عقد ثلاثة مؤتمرات دولية هدفت إلى تقديم الدعم المالي للبنان وإعفائه من الديون: مؤتمر أصدقاء لبنان للمانحين، في واشنطن عام 1996 ومؤتمري باريس واحد واثنان عامي 2001 و 2002. انظر: www.rhariri.com/french.aspx?ID=466.

[19] يعتقد المحللون أن انتصاره كان يعود بشكل رئيسي لحقيقة أن مجلس النواب ودمشق اعتبراه قادراً على إعادة التوازن إلى الليرة اللبنانية. انظر: Ghassan Charbel, *The Palace Malediction*, op. cit., pp. 54-55.

[20] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، نيسان/أبريل 2009.

[21] طبقاً لأحد المقربين منه، فإن الحريري بدأ بالإعداد لمشروعه لإعادة بناء بيروت منذ عام 1982. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 7 نيسان/أبريل 2008.

[22] في عام 1994، كتب سمير القصير، وهو صحفي معروف، "إن التنازع في المصالح والمدفوع بوجود رئيس حكومة هو في نفس الوقت رجل أعمال يقوم بالعديد من الأنشطة المتنوعة (البناء، والأشغال العامة، والمصارف، والتأمين، والإعلام، والعقارات، إلخ) هو أمر مألوف. المثال الصارخ على ذلك يتمثل في الشركة المكلفة بإعادة بناء وسط بيروت (سوليدير)، التي يمتلك الحريري الجزء الأكبر من أسهمها". Samir Kassir, "Au Liban, un pouvoir sans responsabilité, des querelles sans enjeux", *Le Monde Diplomatique*, October 1994. قصير، الذي كان أحد أشرس منتقدي السياسة السورية في لبنان، اغتيل في 2 حزيران/يونيو 2005.

[23] رئيس الوزراء الأسبق سليم الحص وصف السياسة الاقتصادية للحريري بعبارته الشهيرة بأنها "وضع الحجر قبل البشر". انظر: Marwan Iskandar, op. cit., p.89.

[24] طبقاً لوزير مالية سابق، فإن "الدين العام، الذي كان يشكل 45 بالمئة فقط من الناتج المحلي الإجمالي في نهاية الحرب (1975-1990) وصل إلى 200 بالمئة في 2005-2006. أما خدمة الدين، الممولة داخلياً، فهي تستنزف المالية العامة ولا تترك مجالاً للإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية". Georges Corm, "Les causes de la crise libanaise: l'Europe contribue-t-elle à la solution?" وثيقة قدمت إلى اجتماع لجنة السياسة والأمن وحقوق الانسان في البرلمان الأوروبي، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2007، على الموقع: www.iemed.org/documents/novesrealitats/Alcoverro/a1.pdf.

[25] بالنسبة للحريري، فإن "لبنان يسعى للسلام. إنه خيارنا الوحيد الممكن. إنه خيارنا الاستراتيجي لأنه في مصلحة لبنان". www.liberation.fr/monde/0104224947-hariri-la-paix-ne-se-coupe-pas-en-morceaux-le-premier-ministre-libanais-exclut-un-accord-separe-avec-israel. يذكر أن الحريري كان يراهن على تحقيق السلام بين إسرائيل وسورية كوسيلة للحد من سيطرة الأخيرة على لبنان. انظر: Nicolas Blanford, op. cit., pp. 71-72.

[26] www.rhariri.com/general.aspx?pagecontent=biography.

الولايات المتحدة وأرائيل شارون في إسرائيل، وكلاهما لم يبد متحمساً لإعادة إطلاق محادثات السلام.

وأخيراً، فإن رهان الحريري استقر على طيب النوايا السورية، التي كان وجودها ونفوذها في لبنان كبيرين للغاية ومقحمين ويحظيان بموافقة دولية. إن مجرد حقيقة مجيئه كرئيس للوزراء كان يعكس اتفاقاً بين دمشق والرياض التي كانت تعترف بأولوية المصالح السورية في لبنان، في حين كانت تعطي دوراً للسعودية من خلال رفيق الحريري.

لم تكن سياسة الحريري الاقتصادية بحد ذاتها معادية لمصالح سورية؛ فقد ساعدت الحركة المحمومة لإعادة الإعمار في لبنان جارته، التي وجد العديد من عمّالها غير المؤهلين مجالاً واسعاً للعمل فيها.[27] أدت عودة ظهور لبنان كمركز تجاري ومصرفي واستهلاكي إلى عودة ظهور التقسيم التقليدي للعمل بين لبنان الأكثر ليبرالية وسورية الأكثر اشتراكية. كما أفضى ذلك إلى تغذية الفساد الذي شمل نخب كلا البلدين، وبذلك سهل على سورية السيطرة على الطبقة السياسية في بيروت. في البداية على الأقل، حاول الحريري جاهداً إرضاء جارته. على حد تعبير أحد مستشاريه المقربين فإنه "كان إصلاحياً يسعى للتوصل إلى تسوية مع سورية. لم يرد المواجهة".[28]

بدأت التوترات بين الحريري وسورية بالظهور عام 1998. وقد تسببت بها جملة من العوامل المترابطة. بداية، اكتسب الحريري موقعاً استثنائياً كزعيم للدولة بحكم الأمر الواقع،[29] حيث جمع الدعم السني الواسع، والرؤية الوطنية والدعم الدولي القوي. وبهذا كان يشكل تناقضاً صارخاً مع الزعماء التقليديين لبلاده، الذين كانوا في معظم الأحوال زعماء إقطاعيين مرتبطين بقوة بمصالح طوائفهم، ومنقسمين بشدة على أنفسهم، وبالتالي كان يسهل استغلالهم، من وجهة نظر سورية. بالنظر إلى رغبة سورية بتحجيم الحريري، فقد استغلت الصعوبات المتزايدة التي واجهها مشروعه الاقتصادي.[30] كما لعبت الفترة الانتقالية في سورية دوراً؛ فمن شبه المؤكد أن الرئيس حافظ الأسد، الذي كان مريضاً وفي سنواته الأخيرة كان يسعى إلى تعزيز موقع نظامه في لبنان قبل تسليم السلطة إلى ابنه بشار.

حدثت المرحلة الملموسة من الأزمة في تشرين الثاني/نوفمبر 1998، عندما رتبت الانتخابات لرئاسة إميل لحود، القائد السابق للجيش. اتخذ لحود مباشرة موقفاً معارضاً للحريري؛ وركز في خطابه الأول على "أولوية سلطة القانون، وتقوية المؤسسات الحكومية، وأهمية وجود الشفافية والمساءلة في تسيير الشؤون العامة ودعم العدالة والمساواة الإجتماعية"، وجميعها كانت هجمات غير مباشرة على رئيس الوزراء المنتهية ولايته.[31] في النهاية، امتنع الحريري عن المشاركة،[32] وجرى تعديل كامل تقريباً للحكومة التي رأسها سليم الحص.

وصلت التوترات إلى مستويات جديدة عندما انتزع رفيق الحريري رئاسة الوزراء مرة أخرى بعد فوزه الكاسح بالانتخابات النيابية لعام 2000. أفضى ذلك إلى علاقة عاصفة مع الرئيس انعكست في الشلل الداخلي الدائم وتنامي التدخل السوري.[33] وفي نفس الوقت، شجع انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان عام 2000 معارضة لبنانية أكبر

[27] John Chalcraft, *The Invisible Cage. Syria Migrant Workers in Lebanon*, (Stanford, 2009).

[28] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نهاد المشنوق، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل، بيروت، 2 كانون الثاني/يناير 2010.

[29] إضافة إلى نشاطاته الإقتصادية والإجتماعية الكبيرة أسس الحريري إمبراطورية إعلامية. استحوذ على راديو الشرق، واشترى أسهماً في صحيفة *النهار* اليومية وأسس *تلفزيون المستقبل* وصحيفة *المستقبل*. واستعملها جميعاً في الترويج لسياساته، وفوق كل شيء التصدي لهجمات خصومه. انظر: Iskandar, op. cit., pp. 54-55.

[30] كتب اسكندر: "كان الدين العام يرتفع بسرعة كبيرة من أقل من 2 مليار دولار أميركي عام 1992 إلى 17 مليار دولار عام 1998. كان عجز الموازنة قد وصل عام 1997 إلى رقم قياسي هو 59 بالمئة وتراجعت معدلات النمو من 14 بالمئة عام 1993 إلى 3 بالمئة عام 1998. في مطلع صيف عام 1998، بدا لبنان بحاجة ماسة إلى تغير في مناخه السياسي وقيادته السياسية. المرجع السابق، ص. 91.

[31] مقاطع من الخطاب متوفرة على الموقع: www.finance.gov.lb/NR/rdonlyres/7C38A8A7-E998-40AB-9179-F12EAD2CCA18/0/CountryProfile2004.pdf
بين عامي 1998 و 2000، قاد لحود حملة ضد رئيس الوزراء السابق. زعم أنه يريد تنظيف الدولة من الفساد الذي ورثته البلاد من رفيق الحريري. تمت محاكمة عدد من زملاء الحريري المقربين، بمن فيهم الشخص الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء، فؤاد السنيورة. انظر: Blanford, op. cit., pp. 77-78; Iskandar, op.cit., pp. 96-98.

[32] لعبت سورية دوراً حاسماً في تشكيل الحكومة. فقد فرضت بعض الوزراء، وفاوضت على توزيع المناصب مع مختلف الأحزاب وضمنت عدم دخول أي معارض للنظام السوري الحكومة. رفيق الحريري، الذي شكل ثلاث حكومات بين عامي 1992 و1998، تمتع بقدر أكبر من الحرية مما تمتع به الآخرون في هذا الصدد، بحكم نفوذه الإقتصادي وعلاقاته الدولية القوية. حالما أصبح لحود رئيساً بدأ هذا بالتغير. اتخذ الرئيس الجديد عدة خطوات بدت وكأنها تعمدت إضعاف وحتى إهانة الحريري: التشكيك فيما إذا كان على الرئيس احترام الشخص الذي يفضله أعضاء مجلس النواب (وفي هذه الحالة كان معظمهم يدعم الحريري)؛ وتأخير تعيين رئيس الوزراء؛ وجعل عدد من أعضاء مجلس النواب يفوضون لحود باختيار رئيس الوزراء. عندما طلب من الحريري تشكيل الحكومة، رفض القيام بذلك "بموجب تلك الشروط". انظر: *The Economist*, 3 December 1998، *الشرق الأوسط*، 19 شباط/فبراير 2001؛ Nicolas Blanford, op.cit., p. 70.

[33] عززت الأجهزة الأمنية اللبنانية والسورية، على وجه الخصوص، من سيطرتها السياسية. وقمعت قوات الأمن بقسوة عدداً من المظاهرات الطلابية ضد الوجود السوري واعتقلت عدداً من منتقدي سورية. طبقاً لنواب سابقين، ومستشارين للحريري وصحفيين، فإن أنشطة الوزراء كانت مضبوطة بإحكام من قبل أجهزة الأمن. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008 – أيار/مايو 2010. إضافة إلى ذلك، فإن السلطات اللبنانية اتخذت إجراءات ضد عدد من وسائل الإعلام الدولية المنتقدة لسورية. في أيلول/سبتمبر 2002، تم إغلاق محطة تلفزيون يملكها غابرييل المر، وهو نائب ومنتقد للسياسات السورية، بحكم من المحكمة، وفي تشرين الثاني/نوفمبر قررت المحكمة الدستورية عدم شرعية انتخابه. انظر:

L'Orient le jour, at www.lorientlejour.com/data/attach_784299884_1232536106.pdf؛ *Le Monde*, 15 August 2001; and www.le-liban.com/liban/rubrique/la-censure-au-liban, 21 August 2001.

للوجود العسكري السوري في لبنان وسلاح حزب الله،[34] وكلاهما كان مبرره الرئيسي استمرار الاحتلال. لم تعد الانتقادات الموجهة ضد سورية مسيحية فقط،[35] مع انضمام آخرين – خصوصاً وليد جنبلاط، زعيم الطائفة الدرزية – إلى هذه الأصوات. كان النظام السوري يواجه الغزو الأميركي للعراق إضافة إلى الضغوط المتنامية من واشنطن وباريس – ومن هنا رغبته إلى حد الهوس تقريباً بإحكام قبضته على البلد الجار.[36] في عام 2003، شكّل الحريري، تحت الضغط، حكومة موالية لسورية.[37] وبعد عام من ذلك، مدد مجلس النواب ولاية لحود لثلاث سنوات، في مخالفة لأحكام الدستور. من وجهة نظر أميركية وفرنسية، فإن سورية تجاوزت بذلك خطاً أحمر؛ أما من وجهة نظر الحريري، فقد كانت تلك نقطة تحوّل دفعته للاستقالة من رئاسة الوزراء والانضمام إلى المعارضة.[38]

بعيد ذلك، وفي 14 شباط/فبراير 2005، قُتل الحريري في انفجار هائل. رغم أن مجموعة جهادية غير معروفة أعلنت مسؤوليتها عن الحادث، فإن الشكوك تركزت مباشرة على سورية، التي أنكرت أي دور لها فيه. حتى ذلك الحين، لم يكن سعد الحريري، الشاب البالغ من العمر 35 عاماً والقاطن في السعودية قد أبدى أي اهتمام أو ميل إلى السياسة. ولم تكن مهاراته الخطابية والسياسية والقيادية قد خضعت لأي اختبار بعد.[39] عندما توفي والده، بدا وكأنه يخلفه بشيء من التردد. لم يصل إلى السلطة كممثل لطائفته، بل ورثها بحكم كونه ابن رفيق الحريري، وبدعم من السعودية،[40] وبسبب الصدمة التي تسببت بها جريمة قتل رفيق الحريري والفراغ الذي تركته في أعقابها. وفي نفس الوقت، انتقل إليه إرث أبيه السياسي في سياق محلي كان قد تغير بشكل جذري.

ب. سعد الحريري وإعادة تموضع الطائفة السنية

كانت جريمة اغتيال الحريري صورة طبق الأصل عن حياته، فقد كانت ذات أبعاد عديدة ووصلت تداعياتها إلى أبعد بكثير من حدود بلاده.[41] سورية، التي اعتبرت مسؤولة عن الحادث على نطاق واسع، واجهت ضغوطاً دولية مكثفة ومباشرة. جعلتها المظاهرات الهائلة غير المسبوقة في لبنان تسحب قواتها بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً على وجودها هناك. كان للحدث تداعيات طائفية؛ فقد أيقظ موت رفيق الحريري مخاوف عميقة كانت كامنة تحت السطح لدى الطائفة السنية التي سارعت إلى الالتفاف حول ابنه، سعد، وغيرت تحالفاتها الداخلية، والإقليمية والدولية.

1. الخلاف مع سورية

في السنوات التي تلت الحرب الأهلية، احتفظ السنة بعلاقات مترددة مع سورية. ويمكن فهم هذه العلاقات بصورة أفضل لدى مقارنتها بالمقاربات التي اتبعتها الطوائف الأخرى. اعتقد المسيحيون أنهم كانوا أكبر الخاسرين جراء اتفاق الطائف، وبشكل أعم جراء الحرب الأهلية. وحمّلوا سورية مسؤولية تهميشهم السياسي وباتوا أشد منتقديها. ما تبع ذلك من قمع مارسته أجهزة الأمن اللبنانية والسورية ترك الطائفة أقل تنظيماً، ودون حس بالاتجاه وبشعور عميق بالإحباط.[42] على النقيض من ذلك، فإن الحركات الشيعية استفادت بقوة من الوجود السوري؛ فقد عززت المكاسب التي حققتها من اتفاق الطائف. لقد حسنت من موقع حركة أمل،[43] وسُمح لحزب الله بالسعي لمتابعة كفاحه ضد إسرائيل رغم أن دمشق مارست ضبطاً محكماً على الطريقة التي يمارس بها ذلك النضال. كانت علاقات سورية مع الشيعة ثقيلة الوطأة في بعض الأحيان وكانت تثير استياء حقيقياً في أحيان أخرى، غير أن المصالح السياسية المتقاطعة جعلت هذه العلاقات أكثر يسراً.[44]

بالنسبة للسنة، كان الوضع أكثر غموضاً. أصبح عدد من الزعماء المحليين، بمن فيهم عمر كرامي في طرابلس وعبد الرحيم مراد في البقاع حلفاء سورية دون قيد أو شرط. وفي الجهة الأخرى من الطيف الطائفي، كان هناك جيوب (صغيرة نسبياً) من المقاومة، خصوصاً بين النشطاء الإسلاميين الذين تعرضوا بدورهم لضربات موجعة من الأجهزة الأمنية اللبنانية والسورية.[45] في شمال لبنان، وخصوصاً في طرابلس، كان الوجود السوري يرقى إلى الاحتلال،

---

[34] كان حزب الله الحركة اللبنانية الوحيدة التي لم ينزع سلاحها في أعقاب الحرب الأهلية.

[35] Crisis Group Report, *The New Lebanese Equation*, op. cit., p. 2-3.

[36] Crisis Group Middle East Report N°39, *Syria after Lebanon, Lebanon after Syria*, 12 April 2005.

[37] كان من بين الوزراء عاصم قانصوه، عضو حزب البعث اللبناني، وأسعد حردان، عن الحزب السوري القومي الإجتماعي. انظر: Nicolas Blanford, op. cit., p.87. في ذلك الحين، دعا الرئيس لحود إلى حكومة جديدة "أكثر قدرة على مواجهة التحديات" التي أطلقها سقوط نظام صدام حسين والضغوط الأميركية على سورية. *الحياة*، 12 نيسان/أبريل 2003. بالنظر إلى الدور السوري حينذاك، لم يكن الحريري في موقع يمكنه من معارضة هذا القرار. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مستشار سابق للحريري، بيروت، 26 نيسان/أبريل 2010.

[38] أبدى الحريري على نحو متكرر معارضته لتمديد ولاية الرئيس لحود. انظر: Nicolas Blanford, op. cit., p. 92. وصف الحريري ذلك بأنه "انقلاب ضد النظام الديمقراطي في لبنان". انظر: www.elwatan.com/Le-pere-de-la-reconstruction-de. في 1 تشرين الأول/أكتوبر 2004، أدى انفجار سيارة مفخخة إلى إصابة مروان حمادة بجروح خطيرة، وحمادة وزير درزي مقرب من وليد جنبلاط، الذي اعترضت كتلته النيابية على التمديد للحود. واتهم مقربون من جنبلاط سورية علناً. وفي النهاية، صوت الحريري لصالح التمديد، رغم أنه قدم في نفس الوقت استقالة حكومته، وامتنع عن الترشح لرئاسة الحكومة وانضم رسمياً إلى صفوف المعارضة. Nicolas Blanford, op. cit., pp. 116-117.

[39] كان سعد الحريري يرأس شركة الإنشاءات التي يملكها والده في السعودية، Saudi Oger . انظر: http://english.aljazeera.net/focus/ lebanon/2009/06/200962713213871468.html.

[40] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في فريق 14 آذار وتيار المستقبل، بيروت وطرابلس، 2006-2009.

[41] Crisis Group Report, *Syria after Lebanon, Lebanon after Syria*, op. cit.

[42] انظر: Crisis Group Report, *Syria after Lebanon, Lebanon after Syria*, op. cit.

[43] أسهم الوجود السوري بشكل كبير في اختيار زعيم حركة أمل، نبيه بري، رئيساً لمجلس النواب، المنصب الذي احتفظ به بري منذ عام 1992.

[44] Crisis Group Report, *Hizbollah and the Lebanese Crisis*, op. cit., pp. 19-20.

[45] يزعم المسؤولون اللبنانيون بأن مئات من الإسلاميين اعتقلوا بين عامي 1999 و 2003. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، 2003-2009.

وهو انعكاس لمخاوف سورية من احتمال قيام حركة إسلامية يمكن في النهاية أن تعبر إلى أراضيها.[46]

غير أن المفاهيم والرؤى الطائفية كانت أكثر تعقيداً. فمن وجهة نظر العديد من اللبنانيين السنة، كان النظام السوري الذي تهيمن عليه الطائفة العلوية، وعلاقته القلقة مع الأغلبية السنية في سورية، تفسر محاولات دمشق إبقاء الطائفة تحت السيطرة ومنعها من التعبير عن أي هوية مستقلة.[47] كما أضاف دعم سورية للمجموعات العلوية في طرابلس وعكار، والتي تعد بعشرات الآلاف،[48] إلى هذه الشكوك.[49] كما أن السنة نظروا إلى المسار السياسي لرفيق الحريري من منظور طائفي، وفسروا محاولات استبعاده بوصفها اعتداءات على الطائفة.

اكتسب هذا المنظور حدة أكبر بالنظر إلى الماضي من موقع الحاضر؛ فمنذ عام 2005، وصفت معاملة الحريري من قبل السوريين بأنها تتسم بالقمع و "الإذلال".[50] أحد زعماء الجماعة الإسلامية، الفرع اللبناني للإخوان المسلمين، قال: "الحقبة السورية كانت سلبية للغاية بالنسبة للسنة، الذين تعرضوا للقمع والإضعاف لصالح الشيعة".[51] رغم أن الوضع كان أكثر غموضاً وتعقيداً،[52] فإن مثل هذه الأفكار واسعة الانتشار تشكل مؤشراً على العمق الذي أثرت فيه أحداث عام 2005 في السنة، وغيرت من منظورهم وحوّلت العداوة الكامنة والمشتتة إلى رفض قوي، وجماعي وشبه إجماعي لسورية.

لا يمكن تفسير عمق رد الفعل السني والحشد الطائفي المذهل الذي مارسوه فقط بالغضب من الممارسات السورية أو الولاء لرفيق الحريري. على حد تعبير أحد الصحفيين، فإن "مخزون الذكريات السيئة المرتبطة بسورية، سواء خلال أو ما بعد الحرب"،[53] ليست حكراً على السنة. كما أن رئيس الوزراء الراحل لم يكن يتمتع بإجماع كل السنة.[54] في الواقع فإن سبب فوز سعد بجميع المقاعد البرلمانية في المناطق ذات الأغلبية السنية يعود إلى أن وفاة والده أظهرت على السطح جملة من عوامل الاستياء وعدم الارتياح والقلق. الاستياء من قدرة سورية على إفشال مشروع الحريري؛ وعدم الارتياح لغياب أي بديل ذي مصداقية؛ والقلق الناجم عن إحساس عام بالهشاشة والضعف. وكانت النتيجة النهائية ظهور غريزة طاغية من التضامن الطائفي. جدير بالذكر أن العديد من السنة، وللتعبير عن صدمتهم الجماعية، يقارنون اغتيال الحريري بـ "الزلزال" أو بالمؤامرة التي تستهدف طائفتهم على وجه التحديد.[55]

أدى هذا إلى إثارة ردي فعل متمايزين لكن مترابطين. فمن ناحية، اختلفت توقعات السنة من سعد بشكل كبير عن توقعاتهم من أبيه. تلقى الابن قبولاً إجماعياً من طائفته التي أوكلت إليه مهمة توحيد صفوف السنة، وضمان سلامتهم والانتقام لهم. ومن ناحية أخرى، فإن الافتراض الواسع النطاق بمسؤولية سورية أنتج إعادة ترتيب تحالفات الطائفة وأفضى إلى بعض التحالفات غير الاعتيادية.[56]

2. التحول نحو الداخل

تاريخياً، كان السنة يتماهون في الحركة القومية العربية وينشدون الدعم من العالم العربي السني الأوسع، وهي نظرة اتضحت في قرار الطائفة دعم الفلسطينيين خلال الحرب الأهلية. مشروع رفيق الحريري ذو الخصوصية اللبنانية اجتذب العديدين، كما أن انهيار القومية العربية أدى إلى تراجع المثل القومي العربي الأعلى. رغم ذلك، فإن الرغبة بالانتماء إلى محيط عربي إسلامي أوسع كانت لا تزال موجودة. على حد تعبير أحد السكان السنة في باب التبانة، "بالنسبة لنا، فإن لبنان يظل كياناً مصطنعاً لا يمكننا أن نتماهى فيه".[57]

---

[46] في أعقاب القمع الدموي الذي مارسته سورية عام 2008 ضد الإسلاميين في حماة، وفرت حركة التوحيد الإسلامي في طرابلس ملاذاً وحماية لأعضاء حركة الإخوان المسلمين السورية. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو سابق في حركة التوحيد، طرابلس، آذار/مارس 2008.

[47] أحد النواب من منطقة عكار عبّر عن آراء العديد من أبناء طائفته عندما قال: "النظام السوري تسيطر عليه أقلية طائفية. وهو يخشى سنة لبنان منذ أن قام بقمع الإخوان المسلمين في سورية في مطلع الثمانينيات، بسبب العلاقات العائلية التي تربط أفراد الطائفة في كلا البلدين. كما في سورية، فإن سنة لبنان يتعرضون لقمع نظام الأسد على كل المستويات. لقد فعلت سورية كل ما في وسعها لتمنع ظهور زعيم سني قوي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع خالد ضاهر، نائب عن تيار المستقبل، بيروت، 19 آب/أغسطس 2009.

[48] *الشرق الأوسط*، 27 حزيران/يونيو 2008.

[49] في عام 1985، دخلت القوات السورية طرابلس وخاضت قتالاً عنيفاً ضد حركة التوحيد الإسلامي. وقتل الجنود السوريون وحلفاؤهم العلويون المحليون مئات من أعضائها. وبمرور الوقت عززت سورية من موقع الطائفة العلوية التي كانت مهمشة سابقاً. قبل عام 1992، على سبيل المثال، لم يكن أي من أعضائها قد انتخب إلى المجلس النيابي.

[50] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نهاد المشنوق، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل، بيروت، 20 كانون الثاني/يناير 2010.

[51] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 3 نيسان/أبريل 2009.

[52] تراوحت العلاقات بين الطرفين تاريخياً بين التحالف والعداوة. في أواخر عهد الإمبراطورية العثمانية، كان المسلمون عموماً ينزعون إلى إبداء معارضة قوية لإقامة لبنان مستقل، مجادلين ضد تقسيم سورية الكبرى على أسس عرقية وطائفية وداعين إلى الاتحاد مع سورية. انظر: فواز طرابلسي، *تاريخ لبنان الحديث – من الإمارة إلى اتفاق الطائف*، (بيروت، 2008) ص 135-138. خلال الحرب الأهلية، قامت سورية بدعم ومحاربة القوات الفلسطينية، التي كانت متحالفة مع السنة، في أوقات مختلفة. واصطدمت القوات السورية بعنف مع الميليشيات اللبنانية السنية، وخصوصاً المرابطون وحركة التوحيد الإسلامي قبل اكتساب ولائهم.

[53] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحمد الزعبي، صحفي في صحيفة *المستقبل*، بيروت، 21 كانون الثاني/يناير 2010.

[54] طبقاً لأحد النشطاء في طرابلس وعكار – اللتان تعتبران اليوم معقلين لتيار المستقبل – "لم يكن ينظر لرفيق الحريري على أنه زعيم سني بالنسبة إلى معظم سكان الشمال، بل بوصفه رجل أعمال ثري مسؤول عن بؤسهم. أما فؤاد السنيورة، فقد كان بدوره وزير المالية الذي يجبي منهم الضرائب". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 17 نيسان/أبريل 2009. أحد مساعدي رفيق الحريري السابقين قال: "لم يكن تيار المستقبل يتمتع بالنفوذ في المناطق السنية الذي يتمتع به اليوم؛ فهو لم يكن ممثلاً في البقاع ولا القرى الشمالية ولا طرابلس". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد كيشلي، بيروت، 7 نيسان/أبريل 2008.

[55] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ونشطاء، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2008 – نيسان/أبريل 2009.

[56] "اغتيال الحريري حرر السنة من الخوف من النظام السوري". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع خالد ضاهر، نائب عن تيار المستقبل، بيروت، 19 آب/أغسطس 2009.

[57] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، أيار/مايو 2006.

سرّع اغتيال الحريري والأزمة التي نجمت عنه مع سورية في تغيير منظور السنة.[58] تحول العديد منهم ببساطة نحو الداخل. كانت مطالبتهم بالانسحاب السوري صدى لمطالب نظرائهم المسيحيين، الذين كانوا قد عارضوا سيطرة جارتهم لوقت طويل. على غرار المسيحيين، احتشدت الطائفة السنية استجابة للدعوة إلى حرية لبنان، وسيادته واستقلاله. أما العداوة المشتركة فأدت إلى ظهور تحالف يشكل ظاهرة غريبة تاريخياً بين تيار المستقبل، والقوات اللبنانية بزعامة سمير جعجع وحزب الكتائب بزعامة أمين الجميل. مستشار سابق لرفيق الحريري وصف هذا على أنه "تحول شامل من ناحية طائفتنا. إنه تحالف غير طبيعي، والأمر غير العادي هو أن القواعد السنية تقبله".[59]

أحد الرموز المثيرة للاهتمام لهذا التغير يتمثل في قرار تيار المستقبل – ومن ثم كتلة سعد الحريري النيابية – اختيار شعار لها هو "لبنان أولاً"، وهو ما دفع أحد الصحفيين البارزين المقربين من القوات اللبنانية للقول: "القد لبنن السنة أنفسهم".[60] مراقب آخر علّق قائلاً: "أن يقول شخص من باب التبانة 'لبنان أولاً' أمر يصعب تصديقه. لقد تشكلت هوية سكان هذا الحي بدرجة كبيرة ... على أساس معارضة مجرد فكرة الدولة اللبنانية".[61]

بالنسبة للبعض، بمن فيهم متعاطفين مع تيار المستقبل، فإن إعطاء الأولوية للبنان يرقى إلى إدارة الظهر لطابع لبنان العربي.[62] رداً على ذلك، أوضح التيار بأن شعاره الجديد لا يتناقض مع الهوية الوطن العربية.[63]

[58] كان هناك أسباب أخرى بالطبع تتضمن أن لبنان دفع ثمناً باهظاً للدفاع عن القضية الفلسطينية. انظر الجزء II- ب -4، وعدم قدرة التيارات الإسلامية على التحول إلى حركات جماهيرية. انظر الجزء III.

[59] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 22 آذار/مارس 2008. خلال الحرب الأهلية، اتهم السنة نفس الحركات المسيحية – التي كانت تحارب الفلسطينيين – بالانعزالية. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، ومشايخ ومتشددين إسلاميين، بيروت، وطرابلس وصيدا، أيار/مايو 2006 – شباط/فبراير 2010.

[60] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 20 أيار/مايو 2010.

[61] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 17 نيسان/أبريل 2010. الباحث الفرنسي، ميشال سورا، الذي اختطف في بيروت عام 1985، كتب: "يمثل رفض الدولة مكوناً أساسياً لشخصية باب التبانة". Michel Seurat, *l'Etat de barbarie*, (Paris, 1989), p. 155.

[62] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت، وطرابلس وصيدا، نيسان/أبريل 2009 – شباط/فبراير 2010. أحد نواب الحركة قال: "ما الذي يعنيه 'لبنان أولاً'؟ لا معنى لذلك. لا يمكن للبنان أن ينفصل عن محيطه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الثاني/يناير 2010. وليد جنبلاط أبدى تشكيكاً مماثلاً: "لبنان أولاً؟ لكن لبنان لا معنى له دون شخصيته العربية، دون فلسطين ودون الوحدة العربية .... للأسف، لقد عدنا إلى الزواريب، إلى التعصب، إلى الطائفية ... لم ننشأ على أساس 'لبنان أولاً' بل على أساس العروبة، على أساس أفق أوسع ينتمي إليه لبنان". انظر: www.almanar.com.lb/Newssite/NewsDetails.aspx?id=93015& language=ar.

[63] انظر: www.almustaqbal.org/article_details.php?id=MTYzMQ==&c=Nzc=.

3. التحول نحو الغرب

لقد دأب سنة لبنان، في معظم الأحوال، على مناهضة السياسات الغربية؛ فقد عارضوا الانتداب الفرنسي وإنشاء إسرائيل؛ وانضموا إلى الحركة القومية العربية، ووقفوا مع الفلسطينيين.[64] وكحال معظم شرائح الرأي العام في المنطقة، فقد كانت عداوتهم تتنامى إزاء الولايات المتحدة، التي بات ينظر إليها على أنها تدعم إسرائيل بشكل أعمى ولا تتعاطف مع التطلعات العربية. وازدادت عداوتهم مع تحول الولايات المتحدة إلى القوة العظمى الوحيدة في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي.[65] وتعمقت المشاعر المعادية لأميركا أكثر كرد فعل على "الحرب على الإرهاب" التي أعلنها جورج دبليو بوش، التي اعتبرها كثيرون صراعاً ضد الإسلام.[66]

تغيرت الأوضاع باغتيال رفيق الحريري عام 2005. تزامن العداء المعلن للسنة حيال سورية مع تحول حاد في السياسة الأميركية رفعت من وتيرة دعواتها إلى انسحاب سورية من لبنان، وفرضت عقوبات على سورية وألمحت إلى احتمال تغيير النظام. داخلياً، دخلت الطائفة فيما وصفه أحد مساعدي الحريري السابقين "تحالفاً غير مقدس"[67] مع الأعداء التاريخيين المتمثلين في الأحزاب المسيحية المعادية لسورية.

استحضر تيار المستقبل مبررين لتفسير التغير الصارخ في تحالفاته الداخلية والدولية. بات ينظر إلى الدول الغربية عموماً، والولايات المتحدة، بوجه خاص، على أنهم حلفاء لا يمكن الاستغناء عنهم فيما بدأ يتبلور بوصفه معركة حياة أو موت غير متوازنة ضد سورية وحلفائها، حزب الله وإيران. وحدها الولايات المتحدة بدت في موقع يمكنها من تحقيق الانسحاب العسكري السوري، ووضع حد لهيمنتها على لبنان ومحاكمة قتلة الحريري – ناهيك عن احتمال قلب نظام

[64] كان تأسيس لبنان في عام 1920 من قبل القوى الغربية، وخصوصاً الانتداب الفرنسي، يهدف إلى تهدئة مخاوف المسيحيين. وقد عارض معظم المسلمين تأسيس لبنان الكبير الذي رؤوا فيه كياناً مسيحياً يتمتع بالدعم الفرنسي. في العقود التي تلت، اصطدم المسلمون والمسيحيون بشكل متكرر على قضايا تتعلق بتموضع لبنان الإقليمي والدولي.

[65] Mohammad-Reza Djalili, "Images de l'Amérique vues du monde de l'islam", *Quaderni*, Année 2003, vol. 50, no. 1, pp. 265-278, at www.persee.fr.

[66] Josiane Feghali and Simon Haddad, "Les Libanais haïssent-ils l'Amérique?", *Outre-Terre*, no. 5, April 2003, at www.cairn.info/revue-outre-terre-2003-4-page-233.htm. رفيق الحريري، الذي كان يتمتع بعلاقات جيدة مع الولايات المتحدة، لم يشعر بالارتياح بعد الغزو الأميركي للعراق. خلال زيارة له إلى موسكو بعد اندلاع حرب 2003، قال: "العراق بحاجة للديمقراطية، لكن لا يمكن فرضها ... مهما كانت نتيجة الحرب فإنها ستزيد من عدد الأشخاص اليائسين الذين سيعتنقون المواقف المتطرفة". انظر: www.libanvision.com/guerre-irak.htm. لم يكن رد الفعل السني على الغزو موحداً. في حين عبّر كثيرون عن غضبهم، فإن آخرين كان يحدوهم الأمل في أن الأحداث، والتزام الولايات المتحدة المعلن بتحقيق الديمقراطية في المنطقة، يمكن أن يشكل ضغطاً على سورية يفضي إلى تغيير النظام أو انسحابها من لبنان. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، تشرين الأول/أكتوبر 2003.

[67] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد الأصدقاء والحلفاء المقربين من الحريري، بيروت، 7 نيسان/أبريل 2008.

الحكم فيها.[68] سعى قادة 14 آذار علناً للحصول على الدعم الغربي وعقدوا اجتماعات مع مسؤولين غربيين لإبراز قوتهم.[69] لبعض الوقت، آتت الاستراتيجية ثمارها؛ إذ لم يفضِ ذلك فقط إلى انسحاب القوات السورية، بل انه أبقى تحالف 14 آذار في السلطة رغم الجهود المضنية التي بذلتها معارضة 8 آذار المدعومة من سورية لإسقاطه وفرض حكومة وحدة وطنية.[70]

كما رأى تيار المستقبل في صراعه مع سورية صراعاً وجودياً بين رؤيتين غير متوافقتين للبنان. طبقاً لهذه النظرة فإن النظام السوري كان مرتبطاً بنيوياً بسياسات معادية لاستقرار لبنان ورفاهه. ولا شك أنها ستستمر في استعمال لبنان كساحة لحربها بالوكالة مع إسرائيل، ونهب اقتصاده وإخضاع شعبه. على النقيض من ذلك، اعتقد التيار أن القوى الغربية تدعم سيادة لبنان، وتعارض سلاح حزب الله،[71] وتؤمن بنموذج اجتماعي أكثر رخاء وسلمية وحداثة يتناقض مع "ثقافة المقاومة" التي يتبناها حزب الله.

أحدثت إعادة تموضع تيار المستقبل دولياً ردود فعل متفاوتة بين قواعده. رغم أن انتقاد سورية وحلفائها كان له صدى واسع، لكن الدفاع عن السياسات الغربية، والأميركية خصوصاً كان يصعب تسويقه. في حين كان العديد من أتباع تيار المستقبل ممتنين لدعم واشنطن، لكنهم رغم ذلك كانوا يتهمونها باتباع سياسة خارجية معادية للمصالح العربية والإسلامية.[72] أحد أعضاء تيار المستقبل عبّر عن ذلك على النحو التالي: "إننا بحاجة إلى الأميركيين للوقوف في وجه سورية وحزب الله، لكن عندما يتعلق الأمر بالعراق أو فلسطين، فإننا نظل معادين جداً للأميركيين".[73] رغم ذلك، فإن المعارضة للغرب تراجعت تدريجياً مع استفحال الأزمة مع سورية وحزب الله.[74] سعت حفنة من معارضي الحريري السنة إلى استغلال موقف تيار المستقبل، وانتقدوه على خيانة القضية الفلسطينية، أو العروبة أو حتى القيم الإسلامية.[75] غير أن هذه الانتقادات لم تلق سوى صدى محدوداً؛ بل انها دفعت السنة إلى رص صفوفهم خلف تيار المستقبل وقادته.

4. الانضمام إلى محور "الإعتدال"

اختلاف الطائفة السنية مع سورية دفعها للانضمام إلى ما يسمى بمحور "دول الإعتدال"، وهو تعبير صيغ لوصف حلفاء واشنطن من العرب – وهم بشكل رئيسي السعودية ومصر والأردن والسلطة الفلسطينية – مقارنة بـ "جبهة المقاومة" التي تضم سورية وإيران وحماس وحزب الله. وتصاعد الاستقطاب بين المعسكرين تدريجياً خلال هذه الفترة نتيجة لعدد من التطورات.

لعبت إدارة بوش دوراً هاماً في هذا. ساعدت رؤية الولايات المتحدة الثنائية للمنطقة – "إما أن تكون معنا أو أن تكون مع الإرهابيين"[76] – ومعارضتها الشديدة للنظام السوري على دفع دمشق بقوة أكبر إلى زاوية إيران وأسهمت في تعميق روابطها بالمجموعات المتشددة في لبنان وفلسطين. وقد قوّت التطورات، بما في ذلك خروج الولايات المتحدة من عملية السلام بين العرب وإسرائيل وغزوها للعراق، هذه المنظمات في الوقت الذي عززت فيه إيران من موقعها. على النقيض من ذلك، وجد حلفاء الولايات المتحدة صعوبة متزايدة في تبرير علاقتهم مع الإدارة الأميركية التي اعتبرت معادية في شرائح واسعة من الرأي العام العربي.

في الوقت نفسه، كانت التوترات بين دمشق من جهة والرياض والقاهرة من جهة أخرى تتنامى حول قضايا إقليمية رئيسية. أثار الخطاب السوري المتشدد فيما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي وكذلك بشأن الحرب على العراق والانتقادات - الضمنية أحياناً والصريحة أحياناً أخرى - للمواقف الأكثر تصالحية لمصر والسعودية، وعلاقاتها الوثيقة مع إيران، ودعمها لحماس وحزب الله،

---

[68] Crisis Group Middle East Report N°48, *Lebanon: Managing the Gathering Storm*, 5 December 2005, p. 12.

[69] لشرح لاسمي 14 آذار و 8 آذار، انظر الجزء II، ب، 4 أدناه.

[70] المرجع السابق. Crisis Group Middle East Briefing N°20, *Lebanon at a Tripwire*, 21 December 2006; Crisis Group Report, *Hizbollah and the Lebanese Crisis*, op. cit., pp. 14-17.

[71] منذ عام 2005، كان موقف تيار المستقبل من سلاح حزب الله متقلباً. كان العديد من قادته يعتقدون أن إنهاء سلاح حزب الله يعتمد بشكل كامل على تسوية الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني. غير أنه، وخصوصاً أثناء فترات الأزمات الداخلية، كان المسؤولون أيضاً يصفون الحزب الشيعي بأنه ميليشيا مسلحة وأن سلاحه "غير شرعي". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت وطرابلس، كانون الثاني/يناير 2007 – أيار/مايو 2008. انظر أيضاً تصريحات الحريري في صحيفة *المستقبل*، 18 نيسان/أبريل 2007.

[72] كما كتبت مجموعة الأزمات من قبل، فإن السنة عموماً أبدوا رد فعل غاضب على قصف إسرائيل للبنان خلال حرب عام 2006؛ وخلال تلك الفترة، عادت عداوتهم إزاء إسرائيل والولايات المتحدة – التي كانت قد طغت عليها في بعض الأحيان عداوتهم حيال سورية وحزب الله – إلى الظهور. Crisis Group Middle East Report N°57, *Israel/Palestine/Lebanon: Climbing Out of the Abyss*, 25 July 2006, pp. 14-15. كان العديد من المشايخ والمواطنين السنة من مؤيدي تيار المستقبل والمعارضين لحزب الله، يعبّرون رغم ذلك عن عداء مستحكم للسياسة الأميركية في المنطقة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، صيدا، طرابلس والبقاع، كانون الثاني/يناير 2007 – آذار/مارس 2008.

[73] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد النشطاء اليساريين السابقين، طرابلس، 9 أيار/مايو 2009. عدة نشطاء ومشايخ سنة عبّروا عن نفس الفكرة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، كانون الثاني/يناير 2008 – أيار/مايو 2009.

[74] ساهمت الهجمات التي شنتها سورية أو حزب الله أو إيران على علاقات تيار المستقبل بالغرب في جعل هذه العلاقات أكثر مشروعية في نظر السنة. أحد سكان بيروت السنة قال: "لا أعلم لماذا يشجب خصومنا اللبنانيون تحالفنا مع الولايات المتحدة في حين يتحالفون هم أنفسهم مع إيران وسورية. تلك البلدان ألحقت الأذى بلبنان أكثر مما فعل الأميركيون". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 7 حزيران/يونيو 2009.

[75] زعيم حركة التوحيد، الحركة السنية التي تتخذ من طرابلس مقراً لها، قال: "إن تحالف تيار المستقبل مع الولايات المتحدة خطأ تاريخي. السنة، وخصوصاً العائلات السنية الرئيسية، عبروا دائماً عن معارضتهم لقوة الولايات المتحدة. الحريري والسنيورة استثناء على ذلك. يريدون من السنة تبني ثقافة مختلفة تتعارض مع العروبة والمصالح الجوهرية للأمة الإسلامية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع بلال سعيد شعبان، طرابلس، 22 آذار/مارس 2008.

[76] http://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2001/09/20010920-8.html.

أثار كل ذلك مخاوف كبيرة لدى المصريين والسعوديين، رغم أن ذلك لم يكن دائماً لأسباب متشابهة.[77] وعلى نحو متزايد بدا وكأن البلدين يضعان الدور السوري في لبنان موضع مساءلة.

وقد فاقمت العوامل الشخصية من الخلافات السياسية؛ فقد خابت الآمال العريضة التي كان الرئيس حسني مبارك والملك عبد الله قد علقاها على الرئيس بشار الأسد – الذي كانا يريان فيه قائداً شاباً عديم الخبرة يمكنهما أن يوجهانه – بسرعة.[78] الملك السعودي، الذي كان قريباً من رفيق الحريري، حمّل بشار مسؤولية اغتياله. رغم ذلك فقد استمرت الجهود الرامية إلى تحسين العلاقات بين الثلاثة والحد من أثر خلافاتهم، حتى بعد مقتل الحريري.[79] انتهت هذه الاتصالات فقط مع حرب عام 2006 على لبنان، التي اتخذا خلالها مواقف مختلفة بشكل جذري. الرياض أدانت "تهوّر"[80] حزب الله، وبعد الحرب ادعى النظام السوري الانتصار، ووصف الرئيس بشار القادة العرب الذين اتخذوا الموقف المضاد بـ "أنصاف الرجال".[81]

هذه السلسلة من الأحداث فتحت الباب على مرحلة من المواجهة المفتوحة. ووصلت المواجهة أوجها في القرارات التي اتخذتها السعودية، ومصر والأردن في حفض مستوى تمثيلهم الى ادنى مستوى لحضور القمة العربية التي انعقدت في دمشق في آذار/مارس 2008؛ وفي استيلاء حزب الله على بيروت[82] في أيار/مايو 2008؛ وفي الاتهامات المتبادلة بين أفراد في المعسكرين.[83] في هذا السياق، تكثف النشاط السعودي في لبنان – وخصوصاً من حيث الدعم الذي تقدمه لتيار المستقبل.[84]

كما شرع تيار المستقبل أيضاً بتعديل موقفه التقليدي فيما يتعلق بالكفاح المسلح ضد إسرائيل. بدأ بشكل متزايد يُبرز عدم استدامة وضع يتحمل فيه لبنان معظم عبء تلك المعركة في حين أن العرب الآخرين يتفرجون. محمد حجّار، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل، عبر عن ذلك على النحو التالي:

> إن تحييد لبنان لا يعني تخليه عن القضايا العربية، وخصوصاً القضية الفلسطينية ومحاربة إسرائيل. ستبقى إسرائيل عدونا إلى الأبد. ... نحن بحاجة إلى خطة عمل تفرض على الأطراف والدول العربية الاضطلاع بمسؤولياتهم بحيث لا يبقى لبنان الساحة الوحيدة للصراع.[85]

---

[77] على سبيل المثال، السعودية قلقة بشكل رئيسي من علاقات سورية الوثيقة مع طهران وحريصة على فك عرى هذه العلاقة، في حين أن دعم سورية لحماس الذي تنظر إليه القاهرة من منظور محلي بحت وخشيتها من غزة يسيطر عليها الإسلاميون على حدودها، هو ما يثير مخاوف مصر بشكل رئيسي. إن الخطاب الصدامي الذي تتبناه سورية حيال إسرائيل ودعمها للجماعات المتشددة تراه مصر تحدياً مباشراً لدورها القيادي في العالم العربي. انظر على سبيل المثال: David Schenker and Simon Henderson, "The Saudi-Egyptian relations' Paradox", *Jane's Islamic Affairs Analyst*, 8 December 2009, at www.islamdaily.net/ar/Contents.aspx?AID=8003.

[78] يذكر أن تعزيز الرئيس بشار لقوته بسرعة، وما صاحب ذلك من تبنيه لمواقف لا تنسجم مع الرغبات المصرية والسعودية وضع حداً لآمال مبارك وعبد الله. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي مصري، القاهرة، شباط/فبراير 2010.

[79] رسمياً، "تبنت مصر كالسعودية، موقفاً حذراً بعد مقتل الحريري، وامتنعت عن الانضمام لكورس الاتهامات الموجهة لسورية. في كانون الثاني/يناير، وخلال واحدة من أصعب الفترات التي مرت بها سورية، كان السعوديون يتحدثون إلى السوريين، واستضاف مبارك الأسد في شرم الشيخ. اعتبرت القاهرة حرب 2006 بمثابة خيانة. إما أن سورية دفعت إليها أو أنها لم تفعل شيئاً لمنعها؛ فهي لم تتخذ أية خطوة للتنسيق مع شركائها العرب. كانت تلك القشة التي قصمت ظهر البعير". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع دبلوماسي مصري، كانون الثاني/يناير 2010. رغم ذلك، فقد أثر اغتيال الحريري بالعاهل السعودي بشكل عميق وشكل عاملاً حاسماً في تدهور العلاقات بين الرياض ودمشق. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد المساعدين السابقين المقربين من رفيق الحريري، بيروت، آذار/مارس 2008. انظر أيضاً: *Crisis Group Report*, Lebanon: Managing the Gathering Storm, *op. cit., p. 15*.

[80] www.metransparent.com/old/texts/egypt_jordan_vs_hizbullah. في مقابلة مع صحيفة عكاظ السعودية، أكد سعد الحريري أن "السعودية عبرت عن الحقيقة كاملة في بيانها". هؤلاء المغامرون وضعونا في موقف حرج نتيجة لتهورهم ... إننا نحمّل هؤلاء المغامرين الذين أثاروا هذه الأزمة المسؤولية". ورد في *L'Orient le Jour*، 18 تموز/يوليو 2006. طبقاً لمسؤول رفيع المستوى في الأمم المتحدة، فإن عدداً من الأنظمة العربية الموالية للغرب كانت تنقل رسالة مفادها أنها تريد من إسرائيل إكمال المهمة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، نيويورك، أيلول/سبتمبر 2006.

[81] www.thenational.ae/article/20090710/FOREIGN/707099796/1011/rss.

[82] Crisis Group Briefing, *Lebanon: Hizbollah's Weapons Turn Inward*, op. cit.

[83] ألمحت سورية إلى أن السعودية قد تكون لعبت دوراً في إثارة الفتنة على الأراضي السورية. محلل سوري مقرب من أجهزة المخابرات المحلية قال: "هناك قدر متنام من الأدلة تشير إلى تورط السعودية. لقد تم مؤخراً اعتقال عميل سعودي يحمل أكداساً من المال مخصصة لإثارة الأعمال التخريبية، وتم طرده من البلاد نتيجة لذلك. وسورية توثق كل خطوة سواء على أراضيها أو في لبنان، لكنها لن تستعمل الأدلة ما دامت المصالحة احتمالاً قائماً. ليس أسلوب سورية الدفع نحو نقطة اللاعودة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، دمشق، تشرين الأول/أكتوبر 2010. خلال الحرب على غزة، قال الأمين العام لحزب الله، "أقول للمصريين، إذا لم تفتحوا معبر رفح، فإنكم ستكونون متورطين في جريمة ترتكب بحق سكان غزة ... نحن نعلم أن الجيش المصري يضم العديد من القادة والمسؤولين العسكريين الذين تبقى قلوبهم ودماؤهم عربية ويقلقون بشأن مصير الأمة العربية". يمكن مراجعة الخطاب الكامل على الموقع: www.mecanopolis.org/?cat=617. في نيسان/أبريل 2009، اتهمت مصر حزب الله بتشكيل خلية إرهابية على أراضيها للتحضير لهجمات ضد أهداف مصرية وسياح إسرائيليين في مصر. انظر: www.rfi.fr/actufr/articles/116/article_83949.asp. بالإشارة إلى خلية حزب الله، أعلن وزير الخارجية المصرية أحمد أبو الغيط: "إيران، وأتباع إيران، يريدون من مصر أن تصبح وصيفة للملكة الإيرانية المتوجة عندما تدخل الشرق الأوسط". انظر: http://news.bbc.co.uk/2/hi/8000427.stm.

[84] بعد حرب عام 2006، أودعت السعودية مليار دولار في المصرف المركزي لمساعدة الاقتصاد اللبناني وقدمت منحة بقيمة 500 مليون دولار لإعادة بناء البلد. www.menafn.com/qn_news_story_s.asp?StoryId=1093122661. يذكر أيضاً أن الرياض قدمت مساعدة مالية هائلة لقوى 14 آذار في سياق الانتخابات النيابية في حزيران/يونيو 2009. انظر: *The New York Times*، 22 نيسان/أبريل 2009.

[85] صحيفة *المستقبل*، 17 أيار/مايو 2009. ليس من قبيل المصادفة أن يختار تيار المستقبل شعار "لبنان أولاً" في انتخابات 2009.

أحد سكان صيدا عبّر عن وجهة نظر يشاطره فيها كثيرون من أفراد الطائفة السنية:

> لماذا ينبغي علينا تحمّل عبء محاربة إسرائيل نيابة عن جميع العرب ؟ لماذا علينا وحدنا أن ندفع الثمن؟ الحرب مع إسرائيل تؤخر جميع المشاريع السابقة لرفيق الحريري. إن حزب الله يدمر كل شيء سعى الحريري لتحقيقه.[86]

أحد التفسيرات الرئيسية لهذا التحول يتعلق بالخلاف مع حزب الله الذي كان بحلول ذلك الوقت قد احتكر المقاومة المسلحة ضد إسرائيل وبات يُنظر إليه على أنه يستعمل تلك المعركة لأغراض لا علاقة لها بالأهداف العربية الأوسع. أحد النشطاء الإسلاميين السنة قال:

> إيران وسورية فعلتا ما وسعهما لتصفية أية مقاومة سنية واستبدلاها بمقاومة شيعية صرفة. في البداية، دعمناها لأن أولويتنا كانت محاربة إسرائيل. لكن تبين أن هدفهم كان إضعاف السنة.[87]

5. الانقسامات المذهبية

قد يكون أبرز التحولات في المواقف السنية منذ عام 2005 هو الاستقطاب المذهبي والعداء للشيعة. كانت التوترات موجودة في الماضي، لكنها ظلت في معظم الأحيان كامنة تحت السطح، أو إذا تم التعبير عنها، كان يتم احتواءها بسرعة. كانت خطوط التماس المهيمنة خلال الحرب الأهلية إما بين المسيحيين والمسلمين أو داخل الطوائف نفسها. بين عامي 1990 و 2005، لم تأخذ الاحتكاكات الدورية بين رفيق الحريري والحركتين الشيعيتين، أمل وحزب الله شكل الصراع المذهبي.

لا شك أن تدهور المناخ الإقليمي، الذي تمثل في الصراع الطائفي في العراق، والمخاوف المتنامية من مكانة إيران وشبح "الخطر الشيعي"، تسرب إلى لبنان.[88] غير أن الفجوة التي كانت تزداد عمقاً بين سنة وشيعة لبنان بين عامي 2005 و 2008 كانت مدفوعة بتطورات محلية. كان الصراع يتفاقم باستمرار، ويصل إلى ذروة جديدة عند كل واحدة من مراحله الخمس الرئيسية.

كان اغتيال الحريري هو نقطة التحول الأولى، فكشف إلى أي حد تباعدت مصالح الطائفتين. بالنسبة للسنة، كان إضعاف سورية يحمل احتمال مستقبل أكثر استقلالاً، يتناغم مع الرؤية الأصلية لرفيق الحريري. على النقيض من ذلك، خشي الشيعة من أن انسحاب سورية – بسحب غطائها العسكري وتسهيل تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 1559 الذي كان قد دعا، في عام 2004، إلى "حل ونزع سلاح جميع الميليشيات اللبنانية وغير اللبنانية" – يمكن أن يسرّع في سحب سلاح حزب الله؛ كما خشيت حركة أمل من خسارة موقعها المتميز في النظام السياسي.[89] هذه التحولات في الحظوظ، معاً، حملت في طياتها احتمال تغيير التوازن الطائفي.

تم التعبير عن المخاوف الشيعية بشكل دراماتيكي خلال المظاهرة الهائلة التي جرت في 8 آذار/مارس 2005، والتي تزامنت مع ذكرى الانقلاب الذي جرى عام 1963 والذي أتى بحزب البعث إلى السلطة في دمشق، وقصد منها إظهار الامتنان والولاء لسورية. في السياق اللبناني المشحون عاطفياً حينذاك، ساعد هذا التعبير المكثّف عن المشاعر الطائفية والسياسية في حدوث مظاهرة مضادة ضخمة، جمعت في 14 آذار السنة والآخرين لإحياء مرور شهر على مقتل الحريري. وفقاً لصحافي مقرب من 14 آذار:

> مظاهرة 8 آذار وضعت الشيعة في مواجهة مع كل الطوائف الأخرى، وخصوصاً السنة. كانت المشاركة السنية في مسيرة 14 آذار ضد سورية، لكنها كانت طائفية بشكل أساسي. كانوا يحتجون ضد الشيعة وضد كل أولئك الذين بدا وكأنهم سعداء بمقتل زعيمهم.[90]

نقطة التحول الثانية تزامنت مع قرار حزب الله الانضمام إلى الحكومة، والذي اتخذ للتعويض عن رحيل سورية. أحد قادة حزب الله عبر عن ذلك كما يلي:

> قبل عام 2005، لم نسعى أبداً إلى أن نكون ممثلين في الحكومة، لأن سورية كانت الضامن للمقاومة. بعد انسحاب سورية، بات وجودنا في الحكومة مطلوباً من أجل الحفاظ على المقاومة.[91]

في انعكاس لحسابات انتخابية بحتة، قام تيار المستقبل، وحركة أمل، وحزب الله وحزب وليد جنبلاط الدرزي بتشكيل تحالف استعداداً للانتخابات التشريعية التي جرت في أيار/مايو – حزيران/يونيو 2005. غير أن ذاك التحالف لم يعمّر طويلاً. في كانون

[86] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، صيدا، 23 أيار/مايو 2009.

[87] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 17 نيسان/أبريل 2009. تبدى موقف تيار المستقبل بشكل واضح خلال الحرب على غزة في الفترة كانون الأول/ديسمبر 2008 – كانون الثاني/يناير 2009 عندما حذا حذو مصر والسعودية – وعلى عكس حزب الله – أحجم عن التعبير عن دعمه لحماس. خلال الحرب، أحد نواب تيار المستقبل قال: "لا أعرف ماذا كانت حسابات حماس (في اختيارها إثارة هذه الحرب). لكني آمل أنهم يخدمون مصلحة الشعب الفلسطيني". *مجلة الصياد*، 23-29 كانون الثاني/يناير 2009. مراقب في طرابلس زعم أن "الملصقات التي تعبر عن الدعم لأهل غزة ألصقت قرب نهاية الحرب، بعد أن ألقى العاهل السعودي خطاباً عبر فيه عن دعمه للشعب الفلسطيني". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عبد الغني عماد، طرابلس، 7 نيسان/أبريل 2009.

[88] بدأ عدد من قادة محور الاعتدال بوصف التوترات الإقليمية على أنه صراع ضد الخطر الشيعي، لا شك في محاولة لاكتساب دعم الجمهور السني الذي يمثل الأغلبية. ملك الأردن، عبد الله، على وجه الخصوص، حذر من نشوء "هلال شيعي" يضم الخليج، وإيران، والعراق ولبنان. *The Guardian*، 27 كانون الثاني/يناير 2007.

[89] منذ البداية، كانت سورية قد دعمت وشجعت حركة أمل، خصوصاً خلال الحرب الأهلية. بعد الحرب، سعت سورية بشكل منهجي لحماية مصالح حليفها وضمان عدم تحقيق حزب الله لموقع مهيمن على الطائفة الشيعية.

[90] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 7 نيسان/أبريل 2009. ناشط إسلامي ردد نفس الرأي: مظاهرة 8 آذار، التي شكرت سوري، أثرت في السنة بعمق. لقد حضروا مظاهرة 14 آذار بأعداد كبيرة ليس فقط من أجل رفيق الحريري، بل أيضاً كجزء من صراع وجودي، وكرد فعل على استفزازات الطرف الآخر، ورداً على الحشود الشيعية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع إيهاب البنا، بيروت، 28 آذار/مارس 2008. شيخ سني، وهو أيضاً أحد حلفاء حزب الله، وصف 8 آذار بأنها إحدى "أخطاء" الحزب. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ماهر حمود، صيدا، 23 كانون الأول/ديسمبر 2008.

[91] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 14 كانون الثاني/يناير 2009؛ وأيضاً مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو في مجلس النواب عن حزب الله، الدوحة، شباط/فبراير 2010.

الأول/ديسمبر 2005، أعلن الوزراء الشيعة مقاطعتهم لاجتماعات الحكومة احتجاجاً على موافقة الحكومة على تشكيل محكمة دولية للتحقيق في مقتل رفيق الحريري وتوسيع صلاحياتها للنظر في اغتيال شخصيات لبنانية أخرى. بعبارة أخرى، فإن المشاركة الأوسع للشيعة في المشهد السياسي وضعهم في صراع مع قوى 14 آذار حول قضايا اعتبرتها الطائفة السنية ذات أهمية خاصة.

أتت حرب عام 2006، والمرحلة التي تبعتها على نحو خاص، لتعلن درجة أعلى من التصعيد. أفضى الصراع نفسه إلى وحدة مؤقتة دفعها بشكل أساسي العداء لإسرائيل والتضامن مع الضحايا المدنيين – الشيعة بشكل رئيسي؛ على الأقل لحين من الزمن، وطغت على الانتقادات القوية والمنتظمة لسلوك حزب الله.[92]

لم يستمر هذا التضامن حتى نهاية الصراع. عاد المعسكران إلى الاصطدام مرة أخرى عندما شرعا في استخلاص العبر من الأضرار الكارثية التي سببتها الحرب. تبنت 8 آذار وجهة النظر القائلة إن سلوك إسرائيل أكد الحاجة للمقاومة ووصفت مقاومة وثبات لبنان على أنه "نصر إلهي". على النقيض من ذلك، جادلت 14 آذار بأن حصيلة الحرب أظهرت إفلاس الاستراتيجية المستندة إلى استفزاز هجمات إسرائيلية مدمرة ومن ثم الشعور بالعزاء والسلوى في مجرد البقاء على قيد الحياة. كانت المناظرة عاطفية للغاية، وأفضى اتهام حزب الله لتيار المستقبل بالخيانة إلى دفع القاعدة الجماهيرية السنية إلى اتخاذ مواقف أكثر راديكالية.[93]

كما ساعدت الحرب على كشف التقدم العسكري المذهل الذي حققه حزب الله منذ انسحاب إسرائيل عام 2000؛ وقد رأى العديد من خصومه المحليين في ذلك تهديداً خطيراً. ساور السنة القلق على وجه الخصوص من أن الشيعة وقد باتوا أكثر نشاطاً سياسياً وأفضل تسليحاً قد يشعرون بإغراء فرض حكمهم.[94]

وتم عبور عتبة أخرى عندما تحول الصراع بوضوح من مجال السياسات النخبوية إلى سياسات الشوارع. في كانون الأول/ديسمبر 2006، نظمت المعارضة بقيادة حزب الله – التي شعرت بالإحباط من قرار الحكومة تجاهل انسحاب الوزراء الشيعة منها – اعتصاماً في مركز بيروت، وهو مكان يعتبره السنة فضاء خاصاً بهم. دعا المشاركون إلى استقالة رئيس الوزراء فؤاد السنيورة – وهو مستشار سابق لرفيق الحريري اختاره سعد لرئاسة الحكومة[95] - وفرض السيطرة على منطقة كانت قد بنيت بالكامل بعد الحرب الأهلية وباتت تمثل تجسيداً لرؤية القائد القتيل.[96] شعر السنة بالإهانة مما اعتبروه استفزازاً يمثل رمزاً "للتوسع الشيعي" في مجال نفوذهم.[97]

اندلعت الصدامات الأولى بين المتشددين عندما أطلقت المعارضة، في كانون الثاني/يناير 2007،[98] إضراباً عاماً وشلت عدة طرق رئيسية في بيروت.[99] أصبحت مثل هذه الحوادث أكثر تكراراً، بعد أن ارتفعت مشاركة سكان الأحياء السنية والشيعية المجاورة.[100] وانتشرت الصدامات إلى مناطق أخرى وشاركت فيها طوائف أخرى. في طرابلس، اتخذت شكل صراع مسلح بين المعقل السني في باب التبانة والمنطقة العلوية في جبل محسن، استمر بضعة أسابيع.

---

[92] انظر: Crisis Group Report, *Hizbollah and the Lebanese Crisis*, op. cit.

[93] في خطاب ألقاه الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، في 7 كانون الأول/ديسمبر 2006، اتهم الحكومة "بتشجيع الإدارة الأميركية على الهجوم على حزب الله من خلال إسرائيل". كما اتهم نصر الله رئيس الوزراء السنيورة بإصدار "أمر للجيش بمصادرة الذخائر العسكرية التابعة للمقاومة في الجنوب في أوج الحرب ... بدلاً من اعتقال جواسيس إسرائيل، حاول أحد الأجهزة الاستخبارية الموالي لحزب السلطة (تيار المستقبل) تحديد أماكن كوادر حزب الله. حاول البعض تحديد مكاني أنا شخصياً خلال الحرب ... أدعو إلى تشكيل لجنة تحقيق للنظر في تصرفات جميع الأطراف"، على الموقع:
http://moqawma.blogspot.com/2006/12/7-2006.html.
زعم أحد قادة الجماعة الإسلامية أن "كل واحد من اتهامات نصر الله كلفه الدعم السني. لو انه اكتفى بالتحدث عن المقاومة، لكان حشد الشارع السني". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 24 آذار/مارس 2008. أحد سكان بيروت السنة قال: "كنت مع حزب الله خلال الحرب وكنت أدعم المقاومة ضد إسرائيل. لكن عندما اتهم قادتها الحكومة بأنهم عملاء لإسرائيل، بدأت أكرههم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 10 حزيران/يونيو 2009.

[94] العديد من اللبنانيين السنة مقتنعون بأن حزب الله يسعى لتعزيز المكانة الداخلية للشيعة. ويزعمون بأن الحزب يحاول تشييع السنة، وشراء الأرض في المناطق السنية وشراء الشخصيات الدينية السنية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين من تيار المستقبل، ومسؤولين من 14 آذار، ومشايخ، ونشطاء إسلاميين، ومواطنين، بيروت، وطرابلس، وصيدا، آذار/مارس 2008 – حزيران/يونيو 2009.

[95] ألمح قادة 14 آذار إلى أن المعارضة كانت تخطط للهجوم على مكاتب رئيس الحكومة (السراي) كي تفرض عليه الاستقالة. فسّر السنة الاعتصام على أنه محاولة لمحاصرة السراي الحكومي، الذي يشكل رمز السلطة السنية. أحد شيوخ طرابلس قال: "إن الشيعة، بمحاصرتهم للسراي، يدنسون رمزاً سنياً. كنا نواجه مجموعة مسلحة احتلت مركز بيروت وفي نفس الوقت تحاصر زعماء طائفة أخرى. كان هذا مهيناً جداً للسنة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسن الشهال، طرابلس، أيار/مايو 2007. مفتي لبنان الذي يرأس أعلى مؤسسة دينية سنية، أمّ الصلاة في مقر الحكومة، معلناً أن "الإطاحة برئيس الحكومة السنيورة وحكومته يمثل خطاً أحمر". صحيفة *الشرق الأوسط*، 9 كانون الأول/ديسمبر 2009. إيهاب البنا، وهو ناشط إسلامي، قال: "لقد ساوى المفتي بين مبنى الحكومة والمسجد، وهو مكان مقدس بالنسبة للطائفة السنية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 23 آذار/مارس 2008.

[96] أحد المشايخ المقيمين في بيروت اعتبر أن "8 آذار احتلت قلب بيروت، وهو قلب مشروع رفيق الحريري". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 15 نيسان/أبريل 2009.

[97] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، ومشايخ ونشطاء، بيروت، وطرابلس وصيدا، كانون الثاني/يناير 2008 – نيسان/أبريل 2009.

[98] قبل شهر، في كانون الأول/ديسمبر 2006، قتل مواطن شيعي من سكان الحي السني طريق الجديدة على يد مسلحين سنة. انظر:
www.time.com/time/world/article/0,8599,1566289,00.html.

[99] قتل عدة أشخاص وجرح العشرات نتيجة لهذه الصدامات. الجيش رد بفرض حظر للتجول.
www.leb army.gov.lb/article.asp?ln=ar&id=13066.

[100] أحد سكان الأحياء المختلطة قال: "كان كل يوم يشهد فعلياً قتالاً بين متشددين شباب من الخندق الغميق (وسكانه بشكل رئيسي من أنصار حركة أمل) والبسطة (الذي يؤيد سكانه تيار المستقبل). كنا نعيش في حالة حرب مستمرة لا زالت تؤرقنا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، أيار/مايو 2009. هددت بضعة أحداث دامية بين 2006 و 2008 بجر البلاد إلى صراع أكثر عنفاً وزعزعة للاستقرار.

أدت هذه المرحلة الجديدة من المواجهات الطائفية إلى دفع كثيرين في الطائفة السنية لمطالبة قياداتها ببناء قدرات عسكرية للدفاع عن نفسها.[101] وتعززت مطالبهم بعدم قدرة قوات الأمن الوقوف بين الأطراف المتصارعة. تيار المستقبل، الذي كان يواجه منافسة من خصومه السنة في العديد من الأماكن، لم يستطع البقاء سلبياً مع انتشار التوتر على نحو متزايد بين أنصاره.[102] في ذلك الوقت، قال أحد مستشاري سعد الحريري:

> لا نستطيع الاعتماد على الجيش. متشددو حزب الله وأمل يستطيعون دخول أي مكان يريدون وإشاعة الفوضى فيه قبل أن يتدخل الجيش. الرد الأفضل والوحيد هو أن يضطلع شبابنا بحماية الأحياء السنية.[103]

لم يكن رد تيار المستقبل على الضغوط الشعبية المتنامية تشكيل ميليشيا مركزية خاصة به؛ كانت القوة العسكرية الطاغية لحزب الله ستجعل من أي محاولة من هذا النوع شيئاً من العبث وتحقق عكس ما يريد تحقيقه.[104] بدلاً من ذلك، قام التيار بإنشاء مؤسسة أمنية خاصة[105] مهمتها حماية قادة التيار – رداً على اغتيال بض شخصيات من 14 آذار بين عامي 2005 و 2007. كما جندت عدداً من المتشددين في مجموعات يديرها ويمولها تيار المستقبل للدفاع عن الأحياء السنية.[106] مستشار آخر لسعد الحريري شرح ذلك قائلاً:

> الإضراب العام الذي جرى في كانون الثاني/يناير 2007 دفعنا لتشكيل هذه المجموعات.[107] في الواقع أُغلقت بيروت بالكامل عندما أقامت حركة أمل وحزب الله مئات نقاط التفتيش. كان سكان بيروت السنة في حالة من الصدمة: تمت محاصرتهم من قبل الشيعة. بسط حزب الله سيطرته على بيروت بالكامل، بما في ذلك الأحياء السنية. عندها قررنا تجنيد الأشخاص وتدريبهم للدفاع عن مناطقهم.[108]

المرحلة الخامسة والأخيرة في هذه الأزمة المتصاعدة حدثت في أيار/مايو 2008. كرد فعل على قرارين للحكومة اعتبرهما حزب الله تقويضاً لقدراته العملياتية،[109] قام الحزب وبعض حلفائه بمناورة عسكرية واسعة. وخلال ساعات قليلة، كان الحزب قد سيطر على بيروت الغربية ذات الأغلبية السنية.[110] ووقع سعد الحريري تحت الحصار في مقر سكنه، بعد اعتقال حرسه الشخصي، والأمن الخاص التابع لتيار المستقبل والقوات الأخرى.[111] كانت هزيمة السنة سريعة، وجليّة ومهينة.

ج. مفارقة التوازن الجديد في القوى

حملت أزمة أيار/مايو في طياتها عدة دروس قاسية لتيار المستقبل. بداية، تفوق عليه خصومه بشكل كامل من حيث التماسك، والتصميم والتخطيط المسبق. وحتى داخل بطانة الحريري، وجهت انتقادات

---

[101] خلال المظاهرات، كان بعض المتعاطفين مع تيار المستقبل يهتفون: "يا سعد، نريد كلاشينكات وليس خبزاً". ملاحظات لمجموعة الأزمات، طرابلس، آذار/مارس 2008. أحد نواب تيار المستقبل زعم أنه وزملاءه اجتمعوا إلى عدة مجموعات كانت تطالب بالتسلح. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008.

[102] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت وطرابلس، آذار/مارس - أيار/مايو 2008. أحد المستشارين المقربين من سعد الحريري، شرح قائلاً: "كان علينا أن نفعل شيئاً للتصدي لغضب الشباب السني. كان الآخرون يسبوننا ويسبون سعد الحريري عندما نرفض طلباتهم للسلاح". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008.

[103] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008. لم يكن مؤيدو تيار المستقبل وحدهم في التعبير عن مثل تلك المطالب. الجماعة الإسلامية، التي استمرت، كحزب الله، في تأييد المقاومة المسلحة ضد إسرائيل، شكلت رغم ذلك مجموعة للدفاع عن مقرها وعن دار الفتوى، المؤسسة الدينية السنية الرسمية، الواقعة في الحي السني عائشة بكار. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في الجماعة الإسلامية، بيروت، 24 آذار/مارس 2008. قال المسؤول: "يقوم الشباب الشيعة على ظهور دراجاتهم النارية، وبشكل دوري، بمهاجمة الطريق الجديدة (وهو حي سني)، ويتحرشون بالنساء، ويسبون صحابة رسول الله. وفي معظم الأحيان يطلقون النار في هذه المنطقة التي يسمونها تل أبيب. إننا نشعر بأننا غير آمنين على الإطلاق".

[104] "هدفنا هو حل جميع الميليشيات الموجودة، وليس تشكيل ميليشيات جديدة. لكن الدولة وقواتها الأمنية غير قادرة على حمايتنا. لذلك علينا أن نضمن الدفاع عن نفسنا. علينا أن نوفر الأمن والسلامة لشعبنا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مصطفى علوش، طرابلس، 6 أيار/مايو 2008.

[105] تعرف المؤسسة باسم "سكيوريتي بلاس". انظر: www.bloggingbeirut.com/archives/1342-LA-Times-Reports-on-Secure-Plus.html.

[106] كان يدير هذه المجموعات المنسق السابق لتيار المستقبل، سليم دياب. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت وطرابلس، آذار/مارس – أيار/مايو 2008. من بين هذه المجموعات كانت فهود الطريق الجديدة في بيروت وأفواج طرابلس في طرابلس؛ وتم تأسيس مجموعات أخرى في عكار، والبقاع وشبعا. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، آذار/مارس 2008. يقال إن عدد الذين انضموا إليها بلغ عدة آلاف، رغم أن العدد الدقيق والتقديرات تتفاوت بشدة. يقال إن عدد أفراد أفواج طرابلس كان بين 3,000 و 9,000. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع قادة في تيار المستقبل، ومشايخ، ومقاتلين، طرابلس، آذار/مارس – أيلول/سبتمبر 2008.

[107] في كانون الثاني/يناير 2007، دعا الاتحاد العام لنقابات العمال إلى إضراب. رداً على ذلك، أغلق أنصار 8 آذار جميع شوارع بيروت بالإطارات المحترقة. حدث الإضراب قبل المناوشات بيومين في جامعة بيروت العربية.

[108] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008. كانت دوريات من السكان الشباب تسيّر في الأحياء السنية في الليل. ملاحظات لمجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، 2008.

[109] قررت الحكومة تفكيك شبكة اتصالات حزب الله وتغيير مسؤول أمن مطار بيروت، وفيق شقير. والأخير ضابط مقرب من رئيس مجلس النواب نبيه بري، اتهمته قوات 14 آذار بتبادل المعلومات مع حزب الله. Crisis Group Briefing, *Lebanon: Hizbollah's Weapons Turn Inward*, op. cit.

[110] المرجع السابق.

[111] طبقاً للعديد من المراقبين، فإن المجندين كانوا يفتقرون للإعداد، والحافز والمعرفة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين من تيار المستقبل ومواطنين، بيروت، وطرابلس وعكار، آذار/مارس – أيار/مايو 2008. شقيق أحد المقاتلين من عكار قال: "لم يكن لهؤلاء الشباب أي هدف أيديولوجي، لم يكونوا يقاتلون على أساس إيمان مشترك. كان أخي يقول: 'عندما اندلع القتال، لم يكن معنا أية أسلحة، وأرسلنا إلى بيروت رغم عدم معرفتنا بالمدينة. تُركنا لنتدبر أمرنا بأنفسنا'. بالنسبة للعديد من المجندين، لم يكن الانضمام إلى إحدى هذه المجموعات سوى وسيلة لكسب المال". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 8 آب/أغسطس 2009.

مريرة وقاسية للخيارات الاستراتيجية التي اتخذها التيار.[112] المتشددون السنة الذي انضموا للقتال اتهموا قادتهم "بالتخلي عنهم".[113] والأمر الآخر الذي لا يقل أهمية هو أن الأحداث أظهرت انعدام قدرة الحلفاء الأجانب لتيار المستقبل. الولايات المتحدة وفرنسا والسعودية اكتفت بالمراقبة السلبية في حين كان حزب الله يعرض عضلاته. وخلال مفاوضات الدوحة التي تلت ذلك، لم يكن لدى قوى 14 آذار، التي شعرت بالخيانة، سوى قبول معظم مطالب المعارضة، التي كانت قد قاومتها حتى ذلك الحين مدفوعة ومتفائلة بدعم المجتمع الدولي.[114]

شكلت هذه الحصيلة، بشكل ما، نهاية للمغازلة القصيرة الأمد من جانب تيار المستقبل للمنطق العسكري. منذ البداية، كان الجهد الذي انصب على تطوير قوة أمنية موازية تتعارض مع الأجندة المعلنة للتيار – والمتمثلة في تعزيز الدولة واحتكارها لاستعمال القوة، وتقوية سيادة الدولة والعمل من أجل الوحدة الوطنية. كما أنها كانت سترقى إلى تقليد نفس الممارسات التي انتقد حزب الله عليها دون أن يكون لديه أدنى فرصة في الاقتراب من القوة العسكرية الطاغية للحزب الشيعي.

رغم الانتكاسات التي واجهت تيار المستقبل، فقد عزز من الدعم الشعبي الذي يحظى به في أعقاب هذه الأحداث. نظراً للصدمة التي شعر بها السنة تجاه حزب الله واتخاذه قرار تحويل سلاحه إلى الداخل، التفّ أبناء الطائفة بقوة حول الحريري. في وجه ما مر به من مخاطر وجودية، فإن أي تعبير عن الانشقاق كان يعتبر بمثابة خيانة.[115] في حزيران/يونيو 2009، تعزز موقف تيار المستقبل بالإقبال الكاسح للسنة على صناديق الاقتراع ففاز في الانتخابات النيابية. كان التصويت، الذي عكس التضامن الطائفي القوي، مؤشراً على ظهور الحريري كزعيم سني دون منازع.[116]

رغم ذلك، فإن مواجهة أيار/مايو 2008 رسخت توازناً عسكرياً لم يكن بوسع تيار المستقبل تجاهله. الرئيس الجديد، ميشال سليمان، تم اختياره بالتوافق، ووافقت عليه قوى 14 آذار و8 آذار وحلفائها الخارجيين. وكانت الحكومة الجديدة، كتلك التي نتجت عن اتفاق الدوحة، حكومة وحدة وطنية كان لائتلاف 14 آذار فيها خمسة عشر وزيراً، و لـ 8 آذار عشرة وزراء، وللرئيس خمسة.[117] بشكل أساسي، فإن تيار المستقبل وحلفاؤه لم يعودوا يحكمون ضد المعارضة بل معها – أي أن المعارضة لا زال بوسعها الاعتراض على سياسات 14 آذار لكن من الداخل.

وبموازاة إعادة تشكيل التحالفات الداخلية، جرت عملية إعادة تموضع إقليمية ودولية. بعد اتفاق الدوحة، انفصلت فرنسا عن الولايات المتحدة وطبّعت علاقاتها بسرعة مع سورية، التي عزي إليها الفضل في السماح بانتخاب الرئيس الجديد.[118] الإدارة الأميركية نفسها، ورغم أنها لم تغير موقفها، فإنها خففت من ضغوطها على دمشق وسحبت يدها إلى حد ما من لبنان.[119] بين بعض زعماء 14 آذار، عزز انتخاب باراك أوباما الاعتقاد، بصرف النظر عن صحة هذا الاعتقاد، بأن عصر الدعم الأميركي غير المشروط قد بات جزءاً من الماضي.[120]

[112] تعرضت القيادة للانتقاد، بين أشياء أخرى، لسوء إدارة الموارد العسكرية الشحيحة للتيار، ومحاولته تجنيد الشباب باستعمال الحوافز المالية فقط وغياب أيديولوجيا توحدهم ويمكن أن تسهم في تعبئة المقاتلين. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل و14 آذار، بيروت، وطرابلس، وصيدا، والمنيّه وعكار، أيار/مايو 2008 – أيلول/سبتمبر 2009.

[113] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، عكار وبيروت، آب/أغسطس 2009.

[114] بين عامي 2005 و 2008، سجل تحالف 14 آذار عدداً من الانتصارات الهامة. وقد تضمن ذلك الانسحاب السوري وتشكيل المحكمة الدولية رغم اعتراضات الشيعة. ورغم انهيار التحالف الرباعي بين تيار المستقبل، وحزب جنبلاط، وحركة أمل وحزب الله، ورغم المحاولات المتكررة للمعارضة لإسقاطه (من خلال المظاهرات، واستقالة الوزراء الشيعة، والاعتصام الذي استمر شهوراً ورفض انتخاب رئيس)، فإن تحالف 14 آذار ظل في السلطة.

[115] وهكذا عندما وقع عددٌ من القادة السلفيين على وثيقة مشتركة مع حزب الله في آب/أغسطس 2008، دون قبول تيار المستقبل، واجهوا مظاهرات غاضبة وفرض عليهم الرجوع عن الاتفاق. صحيفة *السفير*، 20 آب/أغسطس 2008. وعلى نحو مماثل، فإن خصوم تيار المستقبل السنة عانوا من خسائر ساحقة في انتخابات حزيران/يونيو.

[116] صوّت حوالي 80 بالمئة من السنة لصالح تيار المستقبل أو حلفائه. ولعب الصوت السني دوراً حاسماً في انتصار 14 آذار. في المناطق ذات الأغلبية السنية، مثل طرابلس وعكار وصيدا والبقاع الغربي، عززت الانتخابات بوضوح من تفوق الحريري. وفي المناطق ذات الأغلبية المسيحية، حققت الأصوات السنية اختلافاً أيضاً، فرجحت الكفة لصالح 14 آذار. في زحلة، بلغت نسبة الأصوات السنية حوالي 30 بالمئة من مجموع الأصوات رغم أنهم لا يشكلون أكثر من ربع الناخبين؛ وصوت 86 بالمئة منهم لصالح 14 آذار. في دائرة بيروت الأولى، صوت 37,000 سني، ودعم 83 بالمئة منهم 14 آذار. في عام 2005، كان 13,000 فقط منهم قد شاركوا في الانتخابات. انظر: الانتخابات النيابية اللبنانية 2009 وفقاً للأقلام والمرشحين والطوائف، الدولية للمعلومات/السفير (بيروت، 2009). وهذه مطبوعة مكونة من خمسة مجلدات تحتوي تقريراً مفصلاً للأصوات. قبل الانتخابات، قال صحافي من طرابلس، "لن يقوم أحد بمعاقبة تيار المستقبل على الأخطاء التي ارتكبها في طرابلس. هناك الكثير من الانتقادات لقرار التيار استبعاد مصباح الأحدب، الذي يتمتع بدعم سني كبير، أو تضمين أشخاص كانوا يعتبرون أقرب مما ينبغي من سورية، مثل أحمد كرامي. لكن في يوم الانتخابات، حتى أولئك الذين لم يكونوا راضين سيصوتون لقائمة تيار المستقبل – بعضهم لاعتمادهم المالي على التيار، وآخرين لأنهم لا يرغبون بانتخاب أحد حلفاء حزب الله". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 7 نيسان/أبريل 2009.

[117] "Lebanon's new Government", International Foundation for Electoral Systems, 9 November 2009. طبقاً لأحد مستشاري الحريري، فإن "أحداث 7 أيار واتفاق الدوحة أدت إلى وضع قواعد جديدة وتوازن جديد في القوى بين الأغلبية والمعارضة لم تتمكن الانتخابات نفسها من تغييره. هذه ليست مسألة سيطرة حزب الله بل مسألة توازن بين الأحزاب المختلفة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد شطح، مستشار الحريري للسياسة الخارجية، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010.

[118] Crisis Group Middle East Briefing N°27, *Engaging Syria? Lessons from the French Experience*, 15 January 2009.

[119] Crisis Group Middle East Report N°83, *Engaging Syria? U.S. Constraints and Opportunities*, 11 February 2009.

[120] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صحافي لبناني مقرب من 14 آذار، بيروت، 15 شباط/فبراير 2009. انظر أيضاً:

المفارقة هي أن فوز الحريري الواضح في انتخابات حزيران/يونيو 2009 ساعد في تسريع هذه التغيرات. قبول سورية بنتائج الانتخابات وانتخاب الحريري رئيساً للوزراء أزال عقبات هامة من طريق المصالحة السعودية السورية التي كانت قد بدأت في وقت سابق من ذلك العام.[121] ومنذ ذلك الحين، تبنت الرياض مقاربة أكثر توازناً وشجعت تطبيع العلاقات بين سورية ولبنان، بشكل خاص بالضغط على سعد الحريري لزيارة دمشق – وهي الزيارة التي، وبالنظر إلى اعتقاد رئيس الوزراء بمسؤولية سورية عن اغتيال أبيه، كانت مثقلة بالاعتبارات العاطفية والسياسية.[122]

داخلياً، دفعت الصعوبات التي بات تيار 14 آذار يواجهها، وعودة النفوذ السوري، دفعت وليد جنبلاط إلى النأي بنفسه عن التحالف الذي كان دعامته الرئيسية.[123] وبدلاً من ذلك، اتخذ موقفاً حيادياً اعتقاداً منه أن هذا هو الموقف الأكثر حكمة لضمان المصالح الحيوية لطائفته.[124] قال جنبلاط:

> عارضت الحوار الأميركي مع سورية. لكني غيرت رأيي. مشروع بوش للشرق الأوسط الجديد خطير للغاية. انظر إلى ما يحدث في العراق والكارثة في فلسطين.[125]

أدى التحول في اتجاه جنبلاط إلى خبو نصر الحريري الانتخابي، وحرم 14 آذار من قائد كاريزمي مؤثر وجعل استدامة التحالف موضع شك. أحد مستشاري الحريري اشتكى قائلاً: "لقد أدى تغيير جنبلاط لتحالفاته إلى تحول في ميزان القوى".[126]

تكيّف رئيس الوزراء مع الوقائع الجديدة ومع موقعه الجديد. وفور إعلان النتائج في 7 حزيران/يونيو تغيرت لغته من "لن ننسى"[127] إلى لغة اليد الممدودة بغية التوصل إلى تسوية ودعوة لقلب صفحة مرحلة التوترات والصراعات الداخلية. بعد خمسة شهور من المفاوضات، اتفقت الأغلبية والمعارضة على تشكيل حكومة وحدة وطنية تتمتع بها قوى 8 آذار بحق الاعتراض على جميع القرارات الرئيسية للحكومة.[128] جدير بالملاحظة أن الإعلان الوزاري كرر الموقف اللبناني التقليدي فيما يتعلق بسلاح حزب الله،[129] مؤكداً أن هذا الملف سيغلق فقط عند تسوية الصراع العربي الإسرائيلي. في المستقبل القريب، أوضحت الحكومة بأنها ستركز على المسائل المحلية والاقتصادية،[130] رغم أنه حتى في هذه القضايا من غير

---

www.nowlebanon.com/NewsArchiveDetails.aspx?ID=148558.

[121] ظهرت العلامات الأولى على التقارب السعودي السوري في القمة العربية التي عقدت في الكويت في كانون الثاني/يناير 2009 باجتماع عقد بين الملك عبد الله والرئيس الأسد. تبع ذلك زيارة قام بها الأسد إلى المملكة في أيلول/سبتمبر 2009، أعقبتها بعد أسبوعين زيارة العاهل السعودي إلى دمشق. انظر: www.alarabiya.net/views/2009/10/09/87510.html.

[122] خلال الزيارة، أعلن الحريري عن رغبته ببناء "علاقات متميزة، وصريحة وواضحة ... لما فيه مصلحة البلدين والشعبين. Agence France-Presse، 20 كانون الأول/ديسمبر 2009.

[123] "في حين أننا تحالفنا في مرحلة معينة تحت راية 14 آذار مع أحزاب وشخصيات أخرى بحكم واقع البلاد حينذاك، فإن هذا التحالف لا يمكن أن يستمر. يجب أن نفكر في تشكيل جديد داخل الحزب من جهة وعلى مستوى البلاد من جهة أخرى، من أجل الخروج من هذا الانحياز وهذه النزعة اليمينية. ... نحن في الحزب وفريق 14 آذار خضنا معركة ذات مكونات سياسية. انخرطنا في معركة رفض الآخر، أي معركة ذات طبيعة قبلية رفضنا فيها الآخر على أسس طائفية وقبلية. ولذلك فإن انتصارنا لم يكن حقيقياً". www.nowlebanon.com/NewsArchiveDetails.aspx?ID=107029. حتى أن جنبلاط اعتبر أنه كان "من غير المنطقي أننا اجتمعنا بالمحافظين الجدد في واشنطن لحماية ما يدعى بثورة الأرز، والحرية والاستقلال. كان من غير الطبيعي بالنسبة للحزب التقدمي الاشتراكي في سياقه وتموضعه التاريخي الالتقاء بأولئك الذين نشروا الفوضى في الشرق الأوسط ودمروا العراق وفلسطين. المرجع السابق.

[124] من الواضح أن جنبلاط كان مدفوعاً جزئياً باعتبارات طائفية. بعد أحداث 7 أيار، شعر بأن مصالح الدروز كانت تتعرض للتهديد. أحد مساعديه المقربين قال: "كان الدروز يطرحون على أنفسهم العديد من الأسئلة. رجال الدين قالوا لجنبلاط إنه ليس من مصلحة طائفتهم مواجهة الشيعة. كانوا يسألون لماذا ينبغي على الدروز أن يدفعوا ثمن معركة بين السنة والشيعة. لماذا ينبغي علينا تقديم هذه التضحية دفاعاً عن السنة؟" مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 20 أيار/مايو 2009. جنبلاط نفسه قال لمجموعة الأزمات، "نحن أقلية صغيرة. لا نستطيع الوقوف ضد الآخرين. في حال نشوب صراع سني شيعي، أو أي صراع طائفي آخر ينخرط فيه الدروز، فإننا سندفع الثمن الأبهظ. سنخاطر بالاندثار". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 10 آب/أغسطس 2009.

[125] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع وليد جنبلاط، بيروت، 22 أيلول/سبتمبر 2009.

[126] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد شطح، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010.

[127] هذا الشعار الانتخابي كان يشير إلى اغتيال رفيق الحريري في عام 2005 وإلى السيطرة على بيروت في عام 2008، وهما الحدثان اللذان تعهد الحريري بعدم نسيانهما.

[128] طبقاً لاتفاق شفهي بين سعد الحريري، والرئيس ميشال سليمان والمعارضة، يكون أحد الوزراء الذين يسميهم الرئيس شيعياً ومقرباً من المعارضة، ونتيجة لذلك فإن تحالف 8 آذار يمتلك فعلياً الثلث المعطل. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع وزير سابق مقرب من سعد الحريري، بيروت، 23 أيلول/سبتمبر 2009. انظر أيضاً: www.aljazeera.net/Mob/Templates/Postings/NewsDetailedPage.aspx?GUID=BA4BA0E-4ACB-452B-BA72-C65B89B852294. رغم ذلك، فإن المصالحة التي تم التوصل إليها على مستوى القمة كان لا بد أن يتم إيصالها إلى القواعد الشعبية أو إلى القيادات الدينية للطائفتين، لأن مشاعر العداوة وعدم الثقة المتبادلة كانت لا تزال قوية بين الطرفين. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مواطنين سنة وشيعة، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2009 – شباط/فبراير 2010. على حد تعبير وزير الاقتصاد والتجارة (السني): "لا زال الاستياء عميقاً والفجوة واسعة بين الطائفتين السنية والشيعية. لا يستطيع السنة أن ينسوا ما حدث في 7 أيار/مايو. منذ ذلك الحين وهم يشعرون بأنهم مهددون من حزب الله". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد الصفدي، بيروت، 22 آذار/مارس 2010.

[129] اعترف الإعلان "بحق لبنان، شعباً وجيشاً ومقاومة بتحرير مزارع شبعا، ومرتفعات كفر شوبا والجزء الشمالي من قرية الغجر إضافة إلى حقه في الدفاع عن لبنان ومياهه الإقليمية في وجه أي عدو وبكل الوسائل الشرعية والمتاحة". انظر: www.nowlebanon.com/NewsArchiveDetails.aspx?ID=131426.

[130] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد شطح، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010.

المؤكد أن الأعضاء المختلفين فيها يمكن أن يتوصلوا إلى أرضية مشتركة.[131]

كان تحول الحريري الأكثر دراماتيكية يتعلق بعلاقاته مع سورية. لم يكن ذلك التحول خلواً من المخاطرة. أتت زيارته الرسمية إلى دمشق، والتي تم ترتيبها بطريقة ترمز إلى المصالحة السياسية والشخصية مع الرئيس بشار الأسد،[132] أتت وسط توقعات كبيرة بتحقيق تقدم في أربعة ملفات رئيسية تعتبر هامة بالنسبة لفريق 14 آذار وحلفائه الدوليين:[133] تفكيك القواعد العسكرية الفلسطينية التي تديرها فصائل فلسطينية موالية لسورية خارج مخيمات اللاجئين؛ والحصول على معلومات حول مصير المواطنين اللبنانيين الذين "فقدوا" خلال الحرب الأهلية على يد القوات السورية؛ وترسيم الحدود السورية اللبنانية؛ وتعديل المعاهدات والمؤسسات التي تحكم العلاقات الثنائية، خصوصاً المجلس الأعلى السوري اللبناني. محمد شطح، أحد مستشاري سعد الحريري، قال: "تمر علاقاتنا بسورية في مرحلة اختبار – وهو اختبار بالنسبة لنا ولكن بالنسبة للسوريين أيضاً. إن تحقيق تقدم في هذه الملفات المختلفة، وخصوصاً فيما يتعلق بطبيعة علاقاتنا الثنائية، يمثل هدفاً واقعياً لكن ليس تحصيل حاصل".[134]

تسببت تعديلات الحريري لسياساته إلى إثارة قلق كثيرين داخل تحالف 14 آذار، خشوا من الجهود السورية للعودة إلى لبنان – سياسياً وحتى عسكرياً – ودفعوا باتجاه موقف أكثر تشدداً سواء نحو المعارضة الداخلية أو نحو دمشق.[135] عدد من متشددي تيار المستقبل عبروا عن إحباطهم وشكوكهم.[136] فمن وجهة نظرهم، كان تشكيل الحكومة، والإعلان الوزاري وزيارة الحريري إلى دمشق بمثابة تنازلات جوهرية ينبغي أن يكون لها مقابل ذي معنى. على حد تعبير أحد قادة التيار، يسأل الناس ما إذا كانت هذه التنازلات مؤشراً على ضعفنا أو على الضغوط الخارجية (من السعودية). إنهم لا يفهمون إلى أين نتجه. علينا أن نظهر لهم أننا لم نتخلَّ عن رؤيتنا".[137] كما أن الموقف "الوسطي" الجديد لتيار المستقبل يمكن أن يدفع شخصيات سنية منافسة إلى تحدي قيادة الحريري. يمكن لأولئك (القلة) الذين احتفظوا بعلاقات وثيقة مع سورية طوال هذه الفترة أن يزعموا أن تغيير رئيس الوزراء لسياسته يؤكد صوابية موقفهم.[138]

رغم وجدود هذه المشاكل المحتملة، يبدو تيار المستقبل حتى الآن قادراً على المحافظة على موقعه المسيطر بين السنة. ومن المرجح أن استمرار عدم اليقين على الساحتين الإقليمية والدولية سيقنع معظمهم بأن رص الصفوف خلف الحريري يمثل أولوية. على عكس أي منافس محتمل، فإن تيار المستقبل يتمتع بانتشار في جميع أنحاء البلاد وبشبكة واسعة من الخدمات الاجتماعية والخيرية. وفي تعبير عن وجهة نظر يحملها كثيرون، تنبأ أحد أعضاء التيار في مجلس النواب بالقول: "إن التغيرات التي حدثت لا تهدد التيار. لا زال الناس حتى الآن يتبعون سعد الحريري".[139]

الأمر الذي قد يكون أكثر جسامة من القضايا الأربع المذكورة أعلاه (ترسيم الحدود، والمفقودين، والمخيمات الفلسطينية، والبنية المؤسسية للعلاقات الثنائية) أو حتى من رد فعل الطائفة السنية على تطبيع العلاقات، هو مجريات المحكمة الدولية فيما يتعلق بمقتل الحريري واللبنانيين الآخرين. بين عامي 2005 و 2008، كانت المحكمة هي المحرك الرئيسي للأعمال العدائية بين تحالف 14 آذار من جهة

---

[131] لقد بدأت الخلافات بالظهور، على سبيل المثال فيما يتعلق بإجراء الانتخابات البلدية في أيار/مايو 2010، وتعيين المسؤولين رفيعي المستوى والموازنة. المثير للاهتمام أن هذه الخلافات شملت التحالفين. في بعض المسائل (مثل تخفيض سن الاقتراع)، صوتت كتلة عون مع بعض أعضاء فريق 14 آذار، في حين أن بعض أعضاء الأغلبية دعموا التعديل مع حزب الله وأمل. في المحصلة فشل التعديل. انظر: صحيفة *النهار*، 23 شباط/فبراير 2010.

[132] ذهب الحريري إلى دمشق مصحوباً بابن عمته وكبير موظفيه نادر الحريري، بدلاً من اصطحابه لعدد من الوزراء والمسئولين. وعقد بضعة اجتماعات مطولة وخاصة مع الرئيس بشار الأسد.

[133] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سمير فرنجية، المسؤول في فريق 14 آذار، بيروت، 7 كانون الثاني/يناير 2010؛ ومحمد شطح، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010.

[134] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد شطح، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010. يظل مستقبل العلاقات السورية اللبنانية غير مؤكد بالطبع. إضافة إلى القضايا المتعلقة بإعادة التفاوض على نوع جديد من العلاقات، فإن هناك مشاكل ذات مصدر خارجي، مثل التوترات على الحدود اللبنانية – الإسرائيلية، والتطورات التي تؤثر في المحكمة الدولية، وتطور العلاقات العربية – العربية وشكل السياسة الإقليمية الأميركية، وخصوصاً حيال إيران.

[135] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، كانون الأول/ديسمبر 2009 – شباط/فبراير 2010. تسببت المفاوضات الطويلة والمضنية بين سعد الحريري وميشيل عون حول تشكيل الحكومة بتوترات داخل صفوف 14 آذار، حيث شعر أعضاؤه المسيحيون بأنه تم تقديم الكثير من التنازلات لخصومهم المسيحيين. وفي المحصلة تم إرضاء عون في عدد من النقاط المحورية: تعيين صهره في الحكومة رغم المعارضة القوية لفريق 14 آذار؛ اختيار شخص مقرب من التيار الوطني الحر لمنصب وزير الاتصالات، رغم مطالبة الحريري وزملائه من قبل بالمنصب. وتذمر حلفاء الحريري المسيحيون من عدم إشراكهم بشكل كامل في المفاوضات واشتكوا من أن التيار العوني حصل على خمسة وزراء في حين حصلوا هم على ثلاثة فقط. في اليوم الذي تشكلت فيه الحكومة، هدد حزب الكتائب، برئاسة الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميل، بالانسحاب من تحالف 14 آذار؛ وقاطع وزيرهم، سليم الصايغ، الاجتماعات الأولى للحكومة. *L'Orient Le Jour*، 10-12 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.

[136] اشتكى أحد مؤيدي تيار المستقبل قائلاً: "بعد هذا الصراع الطويل، عدنا إلى المربع الأول. الحريري يحسّن علاقاته ببشار، وقدم تنازلات عديدة لتحالف 8 آذار في تشكيل الحكومة الجديدة، كما أن الإعلان الوزاري منح الشرعية لسلاح حزب الله". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 13 شباط/فبراير 2010.

[137] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محمد شطح، مستشار الحريري للشؤون الخارجية، بيروت، 16 كانون الثاني/يناير 2010. طبقاً لأحد أعضاء مجلس النواب عن تيار المستقبل، "قواعدنا ومعظم كوادرنا المتوسطة تقبل بعلاقات الحريري الجديدة مع دمشق لكن دون اقتناع". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نهاد المشنوق، بيروت، 2 كانون الثاني/يناير 2010.

[138] أحد المستشارين المقربين من رئيس الوزراء الأسبق عمر كرامي، الذي احتفظ بعلاقات وثيقة مع دمشق، قال: "لم يعد بوسع الحريري أن يستعمل الخطاب المعادي للسوريين لتعبئة السنة. هذا سيساعدنا في المستقبل. كما أن لغته باتت تعكس على نحو متزايد موقف المعارضة السنية التي كان يهاجمها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 13 شباط/فبراير 2010.

[139] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نهاد المشنوق، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل، بيروت، 20 كانون الثاني/يناير 2010.

وسورية وحزب الله من جهة أخرى.[140] الطرف الأول، المقتنع بتورط سورية، يرى فيها أداة لإنهاء إفلات سورية من العقاب وتحجيم نفوذها في لبنان.[141] وقد رأت فيها سورية أداة سياسية استعملتها الولايات المتحدة وقوى 14 آذار للضغط على النظام. الجدير بالملاحظة أن الاختلافات المتعلقة بالمحكمة هي التي دفعت إلى استقالة الوزراء الشيعة في عام 2005.[142]

بالتوصل إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية والخطوات التي تم اتخاذها نحو المصالحة السورية اللبنانية، فإن القضية، بدأت تحتل مكانة ثانوية.[143] لكن ذلك يمكن أن يتغير. ثمة مؤشرات على أن المدعي العام الرئيسي قد يعلن عن التوصل إلى إدانات قبل نهاية العام،[144] كما أن ثمة تخمينات متنامية على أن يثبت تورط أعضاء في حزب الله.[145] وليد جنبلاط، قارن محذراً من المضامين المحتملة لمثل هذه الاتهامات، إنها تشبه "باص عين الرمانة" – في إشارة إلى الهجمات التي أشعلت الحرب الأهلية عام 1975.[146] حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، قال إن هذه التخمينات كانت "خطيرة جداً جداً جداً"، مشككاً في حيادية المحكمة وموضحاً أن تحميل أعضاء في الحزب المسؤولية يمكن أن يزعزع استقرار البلاد.[147] كيف سيتطور هذا الموضوع ومن سيدان يمكن أن يؤثر بعمق على مستقبل العلاقات بين الحريري، وسورية وحزب الله.

د. نقاط الضعف السياسية والمؤسساتية في تيار المستقبل

يتصف تيار المستقبل بالمركزية الشديدة والمرونة الكبيرة. لقد انتظم التيار حول شخصيات أبوية – رفيق الحريري، ومن ثم ولدرجة أقل، سعد – ويعطي أدواراً هامة لعائلة الحريري[148] ويعمل بأسلوب البلاط الملكي حيث يعتبر الوصول إلى الموارد أحد وظائف القرب من العائلة الحاكمة. وفي نفس الوقت، فإن تيار المستقبل لم يقم ببناء هيكليات تنظيمية أو أيديولوجية على شاكلة الأحزاب (رغم أنه سجل رسمياً كحزب في عام 2007).[149] إنه يفتقر إلى برنامج سياسي واضح، وعملية اتخاذ قرار متسقة ومؤسساتية وكوادر احترافية قادرة على تعبئة وتنظيم المؤيدين. يرتبط المؤيدون إلى حد ما بحكم قوة ذكرى الحريري وإرثه،[150] رغم أن الدين الوطني الهائل والصراع المستمر مع إسرائيل وشكل حكومة الوحدة الوطنية الجديدة تضع موضع تساؤل مكونات هامة من تلك الرؤية الكبرى لرفيق الحريري.

من حيث أن تيار المستقبل مثّل رؤية موحدة، فإن هذه الرؤية كانت سلبية بشكل جوهري، بحكم اعتمادها على العداء لحزب الله وبحكم داعميها المحليين والخارجيين. طبقاً لمصطفى علوش:

> تنبع شعبية تيار المستقبل من ردود الفعل الغريزية. بعض أولئك الذين يدعموننا يفعلون ذلك بشكل رئيسي على أساس التضامن الطائفي الذي يدفع إليه الصراع السني الشيعي إضافة إلى العداوة مع حزب الله و (حليفه المسيحي) ميشيل عون.[151]

في السنوات الأخيرة، شكل التنظيم غير الصارم والمرونة السياسية لتيار الحريري ميزة. فقد وسع ذلك من جاذبيته لمجموعات مختلفة ومتناقضة أحياناً. بات التيار تجمعاً واسعاً للإسلاميين، والقوميين العرب، والقوميين اللبنانيين، والنشطاء العلمانيين؛ وللأغنياء والفقراء؛ ولسكان بيروت المقتنعين أن "العاصمة هي المركز الذي ينبغي أن تتركز فيه كل الجهود"[152] وسكان المناطق الذين يعتقدون أن "الأولوية ينبغي أن تعطى لتنمية المناطق الهامشية"؛[153] والأشخاص الذين يشدهم الغرب وبعض أولئك المنشدين نحو الشخصيات الإسلامية المتطرفة. لو كان تيار المستقبل منظماً بصرامة كحزب سياسي، لما أمكنه إدارة وجهات نظر متنافسة كهذه. على حد تعبير أحد ممثليه في مجلس النواب، "ليس هناك بالفعل حركة أو تنظيم سياسي اسمه تيار المستقبل؛ بل هناك تجمع واسع من المؤيدين والأنصار".[154]

بمرور الوقت، يمكن للأسلوب التقليدي المهيمن للسياسات الأبوية، مصحوباً بالافتقار إلى الكوادر، والمؤسسات وآليات التنسيق الداخلي أن يصبح مكلفاً.[155] يتخذ المتشددون أحياناً إجراءات دون أي إشراف.[156] رغم التأييد الكبير الذي يحظى به تيار المستقبل، فإنه يظل على حد تعبير أحد أعضائه في مجلس النواب، "غير مثالي،

---

[140] انظر Crisis Group Briefing, *Lebanon at a Tripwire*, op. cit., pp. 8-11.
[141] المرجع السابق.
[142] انظر ص 11 أعلاه.
[143] في مقابلة أجريت في شباط/فبراير، قال الحريري عن المحكمة: "هذه عملية تأخذ وقتاً، وكل من يعتقد أن العدالة لن تتحقق مخطئ جداً. كل شيء في المحكمة يتحرك إلى الأمام وفي الاتجاه الصحيح. كل ما علينا فعله هو أن نتحلى بالصبر". http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/8514727.stm.
[144] http://nowlebanon.com/NewsArticleDetails.aspx?ID=169998.
[145] انظر على سبيل المثال: www.spiegel.de/international/world/0,1518,626412,00.Html.
[146] صحيفة *السفير*، 26 أيار/مايو 2009.
[147] www.almanar.com.lb/newssite/NewsDetails.aspx?id=86890& language=ar.
[148] بين أفراد العائلة، بهية الحريري، عمة سعد، هي ممثلة التيار في صيدا؛ ونادر، ابن عمته، هو كبير موظفيه، وأحمد الحريري، ابن عمة آخر، رئيس اللجنة المسؤولة عن إعادة هيكلة مؤسسات تيار المستقبل.
[149] انظر: www.almustaqbal.org/category.php?i=NzA.
[150] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، بيروت، آذار/مارس 2008.
[151] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008.
[152] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد أنصار تيار المستقبل، بيروت، 25 آذار/مارس 2009.
[153] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد أنصار تيار المستقبل، المنيه، 8 آب/أغسطس 2009.
[154] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع نهاد المشنوق، بيروت، 20 كانون الثاني/يناير 2010.
[155] بالنسبة لجمال جراح، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل، فإن "ثمة فجوة بين القيادة المركزية والمنسقين الإقليميين. ليس هناك آلية تنسيق واضحة المعالم لتحمل المسؤولية، وتوضيح عملية اتخاذ القرار أو السيطرة وتقييم أداء كوادرنا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.
[156] مثل هذا الغياب للسيطرة المركزية – والتي لا ينفرد بها تيار المستقبل – يمكن أن يكون لها مضامين خطيرة. أحد الصحفيين المقربين من تيار المستقبل قال: "العديد من الاشتباكات التي تحدث هي في الأصل نزاعات محلية، رغم أن المتقاتلين يزعمون أنهم يقومون بذلك نيابة عن تيار المستقبل، أو أمل أو مجموعة أخرى". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 9 أيلول/سبتمبر 2009.

ومتغير وهش".[157] أحد الخبراء المحليين للأمم المتحدة علّق على ذلك قائلاً: "إن الممارسات السياسية الزبائنية تؤدي إلى ولاء متقلب؛ يمكن لولاء أحدهم أن يتحول ضد الزعيم حالما يتوقف الزعيم عن دفع الأموال".[158]

وهناك أيضاً فجوة كبيرة بين المبادىء المعلنة والسلوك الفعلي. يشجب تيار المستقبل سلوك الآخرين، وخصوصاً حزب الله، لتقويضهم للدولة،[159] رغم ذلك فإن سياساته لم تختلف كثيراً من حيث آثارها. فهو أيضاً استغل الفراغ الاقتصادي، والاجتماعي والأمني الذي تركته الدولة كوسيلة للاستجابة إلى احتياجات جمهوره، وبسط نفوذه على مؤسسات الدولة،[160] وشجع الخطاب الطائفي وسعى للحصول على المساعدة الأجنبية.[161] مثل هذه السياسات، التي يتبعها معظم أفراد الطبقة السياسية، تؤدي إلى استمرار ضعف الدولة.

كما أن السياسات الزبائنية التي يتبعها تيار المستقبل تقوض الاحتمالات المستقبلية للتنمية الوطنية وتعزز ثقافة الاتكالية. في المناطق التي أهملتها الدولة على وجه الخصوص، يشعر أنصار تيار المستقبل بأن من حقهم الحصول على جزء من ثروة الحريري.[162] أحد ممثلي التيار في مجلس النواب قال:

> الحريري مستعد للمساعدة في تنمية مناطق معينة ومساعدة المحتاجين. لكنهم يفضلون أن يظلوا غير منتجين وأن يعتمدوا بشكل كلي على الحريري. كثير من الناس يتوقعون أن يفعل تيار المستقبل كل شيء لهم. لدي رسالة من أحد الأشخاص في منطقته يطلب فيها من الحريري أن يدفع ديونه. لقد آن الأوان لتغيير هذه الذهنية.[163]

تتمثل أزمة تيار المستقبل الأكثر حدة اليوم في أنه كلما لعب على مخاوف السنة ومصادر قلقهم ـ كلما حافظ على نظام الرعاية الذي يستعمله الآن – كلما ضعفت احتمالات تطلع الحريري للعب دور وطني. بعد انتخابات عام 2009، ادعت القيادة أنها شرعت في عملية إصلاح جدية. لقد أسست لجنة للمساعدة في تحويل التيار إلى حزب سياسي حقيقي؛ وبحلول شباط/فبراير 2010، كان من المفترض أن تقدم اللجنة أفكاراً حول كيفية إعادة تشكيل آلية صنع القرار، والتنسيق الداخلي ومعايير العضوية، والقواعد والأنظمة. غير أن المؤتمر الأول لتيار المستقبل، المزمع عقده مبدئياً في نيسان/أبريل، والذي كان من المفترض أن يعرض برنامجاً جديداً وهيكلية جديدة، تم تأجيله.[164] ويظل التشكك سيد الموقف فيما يتعلق بمدى عمق وسرعة هذه التغيرات، بما في ذلك داخل تيار المستقبل نفسه.[165]

---

[157] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع جمال جراح، بيروت، 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.

[158] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 30 تموز/يوليو 2009.

[159] العديد من أعضاء تيار المستقبل ومسؤوليه يعتبرون حزب الله "دولة داخل دولة"، وميليشيا مسلحة منفصلة مسؤولة عن الأمن والنظام في مناطق معينة- على سبيل المثال، في الضواحي الجنوبية لبيروت. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، كانون الثاني/يناير 2008 – حزيران/يونيو 2009.

[160] يُنظر إلى قوات الأمن الداخلي، التي تعمل كقوة شرطة وطنية وجهاز أمني على أنها تعمل لصالح تيار المستقبل. قائد هذه القوات، أشرف ريفي، معروف بقربه من الحريري. انظر صحيفة *الأخبار*، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.

[161] يعترف عدد من قادة وأنصار تيار المستقبل بصراحة بالصلة "العضوية" بين التيار والسعودية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، 2006 – 2009.

[162] أحد سكان عكار قال: "ينبغي أن يكون سعد الحريري مسؤولاً عن إنفاق المال على منطقتنا. نحن مهملون تماماً من قبل الدولة ومن بين أفقر مناطق لبنان. جميع الزعماء الآخرين يلبون احتياجات أنصارهم. نحن اليوم في معسكر الحريري ولذلك ينبغي أن يرعى شؤوننا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، عكار، 8 آب/أغسطس 2009. أحد سكان طرابلس علّق قائلاً: "سعد الحريري ملياردير، ولذلك ينبغي أن يدفع أكثر مما يدفع الآخرون". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 8 نيسان/أبريل 2009.

[163] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع جمال جراح، ممثل عن تيار المستقبل في مجلس النواب عن منطقة البقاع الغربي، بيروت، 9 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.

[164] ينبغي أن يتم تعيين موعد جديد، لكنه لم يقر بعد. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري الحريري، بيروت، 15 نيسان/أبريل 2010.

[165] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء وأنصار تيار المستقبل، بيروت وطرابلس، كانون الأول/ديسمبر 2009 – شباط/فبراير 2010.

III. نطاق وحدود التنوع السياسي السني

إن السيطرة الحالية لتيار المستقبل على الطائفة السنية أمر فيه الكثير من الغرابة. لجزء كبير من تاريخها، كانت الطائفة مجزأة جغرافياً وسياسياً. وكانت معاقلها تنتشر في سائر أنحاء لبنان، في بيروت، وشمال لبنان، والبقاع الغربي ومدينة صيدا الجنوبية. رغم أن السنة يشتركون أيديولوجياً في بعض الرؤى (القومية العربية في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ ومشاريع إسلاموية مختلفة منذ الثمانينيات)، فإن قياداتها كانت مقسمة على عدد من الشخصيات المحلية المتنافسة. في هذه الظروف، وفي ظل الدور المزدوج الذي يلعبه سعد الحريري كزعيم للتيار وقائد للأمة، يُطرح السؤال الهام حول إلى متى سيستطيع تيار المستقبل المحافظة على ما يشبه الهيمنة.

أ. الشخصيات المحلية

خلال عهد رفيق الحريري، ركز تيار المستقبل أنشطته في بيروت – وهي في نفس الوقت مركز السلطة ومؤسسات الدولة والعاصمة الاقتصادية. طبقاً للعديد من مستشاريه في ذلك الحين، فإن التيار تعمد عدم تكثيف جهوده في مناطق أخرى كي لا يُتهم بالطائفية. أحدهم قال: "ترك الحريري صيدا لتركيز معظم أعماله في بيروت. تمثل العاصمة، في نظره، الدولة وعالمية لبنان. أراد أن يكون في قلب لبنان وعند تقاطع جميع أديانه".[166] جدير بالاهتمام أن سياساته الاقتصادية التي تتبنى اقتصاد السوق عادت بالفائدة على مركز البلاد لكنها أهملت - ومن بعض الأوجه أضرت[167] – بالمناطق الهامشية الفقيرة مثل البقاع وعكار (في شمال لبنان)، وكذلك الأحياء الشعبية في طرابلس، ثاني أكبر مدينة في البلاد وذات الأغلبية السنية.

وما يوازي ذلك أهمية هو أن نطاق طموحات الحريري كان مقيداً بوجود سورية وحلفائها المتواجدين في هذه المناطق. يجادل أنصار تيار المستقبل بأن دمشق منعت التيار من توسيع نفوذه.[168] على النقيض من ذلك، فإن شخصيات محلية موالية لسورية – مثل عمر كرامي في طرابلس وعبد الرحيم مراد في البقاع الغربي – ازدهرت أحوالهم.

الاستثناء الوحيد تمثل في صيدا، مسقط رأس رفيق الحريري. في عام 1979، أسس الحريري أول جمعية له في المدينة الجنوبية. مؤسسة الحريري، التي ترأسها شقيقته بهية، مولت عدداً كبيراً من المشاريع وقدمت خدمات اجتماعية هامة هناك. على عكس المناطق الأخرى ذات الأغلبية السنية، لم يكن في المدينة أي وجود عسكري سوري وبالتالي تمتعت بمساحة أوسع للمناورة. لكن حتى في معقله، واجه الحريري خصوماً. في الانتخابات البلدية لعام 2004، وقبل عام من اغتياله، تعرضت القائمة التي تقودها عائلته لهزيمة مشينة على أيدي مرشحين تدعمهم شخصيتين قيادتين سنيتين أخريين: أسامة سعد،[169] وعبد الرحيم البزري.[170]

كشفت الانتخابات البرلمانية التي جرت في عام 2009 عن صورة مختلفة بشكل صارخ أظهرت الدعم الواسع الذي لا ينازعه فيه أحد بين السنة في سائر أنحاء البلاد، كما أظهر المكانة القيادية الواضحة لسعد الحريري. في طرابلس، اضطر منافسوه الثلاثة الأكثر أهمية، وكان لكل منهم طموحات برئاسة الحكومة، إلى الإقرار بتفوقه: عمر كرامة، رئيس الوزراء الأسبق وسليل عائلة محلية قوية؛[171] ونجيب ميقاتي، وهو أيضاً رئيس وزراء أسبق ورجل أعمال ثري يتمتع بعلاقات وثيقة مع دمشق والرياض؛[172] ومحمد الصفدي، وزير الاقتصاد والتجارة الحالي ورجل الأعمال الناجح المقرب من السعودية.[173]

لم يكن قرار الصفدي بالتحالف مع الحريري مفاجئاً. لكن الأمر المفاجئ هو أنه وبعد أن سعى لاتخاذ موقف مستقل، عاد والتحق بالحريري. لو أنه استمر بمفرده لكان من شبه المؤكد أن يدفع ثمناً باهظاً؛ فرغم أنه كان من المحتمل أن يفوز بمقعد نيابي، فإن معارضة الحريري كانت ستشوه سمعته على الصعيدين المحلي والوطني لدى الطائفة السنية التي كانت أيدت الحريري بشكل طاغ. وذكر أن السعودية لعبت دوراً من وراء الكواليس لتحقيق هذا التحالف.[174] كما أن تيار المستقبل حصد بعض الفوائد أيضاً؛ حيث أن هذا التحالف الواسع أدى إلى تحييد خصم قوي محتمل وبالتالي قلل من المخاطرة ببعثرة الصوت السني.[175] في المحصلة، تم انتخاب جميع أعضاء القائمة المشتركة.

---

[166] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رجل الأعمال اللبناني آلان بدارو، بيروت، 2008.

[167] مشاريع الحريري المختلفة – سواء تعلقت بالتنمية الاقتصادية، أو البنية التحتية، أو الخدمات الاجتماعية، أو السياحة، أو الرياضة، أو التعليم – كانت متركزة في العصمة. كما أن بيروت اجتذبت معظم الاستثمارات خلال عهد رفيق الحريري. انظر: Sandra Iché, "La capitale: deuxième pôle d'intégration", in *L'Orient-Express: Chronique d'un magazine libanais des années 1990*, Institut français du Proche-Orient (Beirut, 2009), at http://ifpo.revues. org/645.

[168] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مصطفى علوش، عضو سابق في مجلس النواب عن تيار المستقبل، بيروت، 25 آذار/مارس 2008؛ ومع خالد ضاهر، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل عن عكار، بيروت، 18 آب/أغسطس 2009.

[169] والد أسامة سعد، معروف، وشقيقه مصطفى، كانا شخصيتين هامتين. في عام 1992، فاز مصطفى سعد بمقعد نيابي رغم مواجهته تحالفاً قوياً يقوده نبيه بري، رئيس مجلس النواب الشيعي، ورفيق الحريري.

[170] يتحدر عبد الرحيم البزري من عائلة صيداوية تقليدية. هو رئيس المجلس البلدي، وكان أبوه وزيراً ونائباً.

[171] دخل كرامي السياسة بعد اغتيال شقيقه عام 1987. وبدعم سوري أصبح رئيس الوزراء في عام 1990 واستعمل شبكات زبائنية لبناء الدعم والتأييد لنفسه. كرامي قريب من حزب الله وهو منتقد شديد لتيار المستقبل.

[172] بنى ميقاتي سمعته في طرابلس بشكل أساسي بفضل أعمال العزم والسعادة، وهي منظمة تقدم الخدمات الاجتماعية. وسعى لوضع نفسه في موضع وسطي بين تحالفي 14 آذار و 8 آذار، غير أنه وبحكم الاستقطاب الشديد، فإنه لم يحقق سوى نجاح متواضع. وميقاتي عضو المجلس الاستشاري الدولي لمجموعة الأزمات الدولية.

[173] في عام 1995، أسس مؤسسة الصفدي، التي تسهم أيضاً في التجديد الاجتماعي والثقافي والرياضي. الصفدي عضو في تحالف 14 آذار وحليف لتيار المستقبل.

[174] طبقاً لبعض المسؤولين في تيار المستقبل وتحالف 14 آذار، فإن الرياض طالبت فعلياً بمثل هذا التحالف بغية تجنب الانقسامات السنية الداخلية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، كانون الثاني/يناير – أيار/مايو 2009.

[175] انظر: Crisis Group Report, *Lebanon's Elections*, op. cit., p. 7.

كان أبرز ضحايا الانتخابات شخصيتان متعارضتان للغاية، يجمع بينهما فقط أنهما لم يكونا جزءاً من تحالف تيار المستقبل. بحصول كرامي على 33.5 بالمئة من الأصوات، لم يتمكن كرامي من الفوز بمقعد نيابي.[176] احتفظ ببعض التأييد بفضل سمعة عائلته وعلاقاتها التاريخية وأيضاً بفضل شبكات المحسوبية؛ كما دعمته بعض المجموعات المحلية.[177] غير أن كرامي خسر الكثير من التأييد بين السنة بسبب علاقاته الوثيقة بسورية، وتحالفه مع حزب الله[178] وعداوته الصريحة للحريري. وعند الطرف الآخر من الطيف السياسي، هناك مصباح الأحدب، الذي أكسبته معارضته الشديدة لحزب الله وسورية بعض التأييد بين السنة، ففاز بـ 20 بالمئة من الأصوات وبالتالي خسر مقعده الانتخابي.[179] رغم أنه كان عضواً في فريق 14 آذار، تم الاستغناء عنه لإفساح المجال لميقاتي.[180]

في البقاع الغربي (دائرة البقاع الغربي/راشيا)، مُني عبد الرحيم مراد، الخصم الرئيسي لتيار المستقبل، والوزير السابق المقرب من حزب الله وسورية، أيضاً بهزيمة ساحقة.[181] كما في طرابلس، فإن التضامن الطائفي في وجه التهديدات المحتملة مصحوباً بالذكريات عن دور سورية في الماضي[182] كان عائقاً لترشحه. كما أن المزيج السني والشيعي في هذه المنطقة عزز من المنطق الطائفي السائد.[183]

النتائج الانتخابية في صيدا – والتي شكلت للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية دائرة مستقلة بدلاً من ربطها بالمناطق الشيعية المجاورة -[184] أظهرت نتائج مثيرة للاهتمام. حقق الإقبال على الاقتراع رقماً قياسياً (قارب 70 بالمئة إجمالاً و74 بالمئة بين السنة)،[185] وركزت هويات المرشحين الأضواء على المنافسة. من ناحية، كان هناك أسامة سعد الذي كان قد هزم الحريري بقوة في عام 2004؛ ومن ناحية أخرى كان هناك بهية، شقيقة رئيس الوزراء الأسبق وفؤاد السنيورة، عضو 14 آذار ورئيس الوزراء المنتهية ولايته.[186] نظر الطرفان إلى الانتخابات بوصفها استفتاء على سعد الحريري وتيار المستقبل. وكانت النتائج حاسمة لا تقبل الشك. حصدت قائمة الحريري – السنيورة 68 بالمئة من الأصوات، متجاوزة أسامة سعد بكثير.[187]

باختصار، فإن تيار المستقبل أظهر وضعه شبه المهيمن داخل الطائفة السنية. كان لا زال بإمكان أعداء الحريري وخصومه المحتملين الاعتماد على الدعم الناشئ عن الظروف المحلية، لكن تبين أن ذلك غير كاف لاختراق التأييد الذي يحظى به. من المرجح أن يتطلب الأمر تغيرات عميقة – التطبيع الحقيقي للعلاقات مع سورية وانخفاض التوترات الطائفية بشكل كبير – كي يتغير هذا الواقع.

ب. الإسلام السني

على عكس بعض التوقعات السنية، فإن تصاعد الطائفية في لبنان لم يعزز جاذبية الحركات الإسلامية السنية.[188] على العكس، فإن الدعم الشعبي لها تراجع حتى مع تصاعد التوترات الطائفية. وقد عكس ذلك على الأغلب الطبيعة السياسية للصراع في أعقاب اغتيال رفيق الحريري، والذي تطلب رص الصفوف وراء قيادة قوية قادرة على تعبئة وحشد القواعد، وتوحيد المكونات المختلفة، والدفاع عن مصالحها داخل الحلبة السياسية المحلية، وعقد تحالف مع المسيحيين والدروز والارتباط بجهات داعمة خارجية. في هذا الصدد، فإن تيار المستقبل حظي بميزة نسبية واضح. على النقيض من ذلك، فإن معظم الأحزاب السياسية الأصغر كانت تفتقر إلى المشروع السياسي المتناسق، ناهيك عن القيادة الموحدة. عدد قليل منها أخذ في الاعتبار الهوية متعددة الطوائف للبلاد، أو التعددية السياسية أو العلاقات مع الغرب.

اجتذبت الرسالة القوية للتيار والمتمثلة في الوحدة السنية العديد من أولئك الذين كانوا قد اتجهوا إلى الحركات الإسلامية.[189] متحدث باسم أحد هذه الأحزاب، وهو حزب التحرير الإسلامي، أقر بأن "الاستقطاب والانقسامات التي أعقبت اغتيال الحريري أضرت بشدة بحزبنا وبالمشاريع الإسلامية بصورة عامة. في طرابلس، فقد

---

[176] المرجع السابق.
[177] بشكل خاص بعض المجموعات الإسلامية والقومية العربية.
[178] ذهب كرامي إلى حد تبرير وصف نصر الله لأحداث 7 أيار/مايو (عندما استولى حزب الله على معظم بيروت) بوصفه "يوماً مجيداً". ورداً على أولئك الذين انتقدوا تصريحات نصر الله، شرح كرامي، "خطاب نصر الله رد فعل على تصريح زعيم تيار المستقبل" ("لن ننسى")، وهي صيحة الحرب عند تيار المستقبل. صحيفة *الشرق الأوسط*، 31 أيار/مايو 2009.
[179] كان الأحدب عضواً شاباً في مجلس النواب عن طرابلس وعضواً في حزب التجدد الديمقراطي بقيادة نسيب لحود، العضو البارز في 14 آذار والذي تم التخلي عنه في عام 2009. حقق الأحدب نتائج استثنائية في الانتخابات النيابية في عامي 2000 و 2005 بالتحالف مع تيار المستقبل. في عام 2009، وبعد تهميشه، شن حملة تركزت على الحاجة لحماية السنة ومقاومة سورية وحزب الله. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين ومواطنين، طرابلس، نيسان/أبريل – أيار/مايو 2008. انظر: الانتخابات النيابية اللبنانية 2009 ، المرجع السابق، (محافظة الشمال)، ص. 20.
[180] حصة طرابلس هي ثمانية مقاعد، بينها خمسة للسنة. اتفق الحريري وميقاتي أن كلاً من ميقاتي وتيار المستقبل سيأخذ مقعدين ويتركان المقعد الخامس للصفدي.
[181] حصل مراد على 27 بالمئة من أصوات السنة، وقائمة الحريري على 73 بالمئة. انظر: الانتخابات النيابية اللبنانية 2009 ، المرجع السابق، (محافظة البقاع)، ص. 289.
[182] كان المقر العام للمخابرات السورية في عنجر، شمال المحافظة.
[183] معظم البقاع الغربي كان تحت الاحتلال الإسرائيلي حتى عام 2000؛ عندما انسحبت قواتها، وكانت مقاومة حزب الله تعتبر مقدسة. منذ ذلك الحين أثرت التوترات الطائفية بعمق على المشاعر العامة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع جمال جراح، عضو مجلس النواب عن تيار المستقبل عن البقاع، بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر 2009.
[184] كانت صيدا في السابق مرتبطة بالزهراني، وصور وبنت جبيل، ما كان يعطي الناخبين الشيعة الصوت الحاسم في الانتخابات.
[185] كانت نسبة الإقبال على الانتخابات 50 بالمئة في عام 2000 و 42.6 بالمئة في انتخابات عام 2005. صحيفة *السفير*، 14 تموز/يوليو 2009.
[186] شغل فؤاد السنيورة منصب وزير المالية في حكومة رفيق الحريري. وهو يتحدر من صيدا، إلا أن جذوره المحلية ليست عميقة. الواقع أنه ظهر كزعيم سني هام نتيجة لكونه رئيساً للوزراء.
[187] انظر: الانتخابات النيابية اللبنانية 2009 ، (محافظة الجنوب) ص. 15-18.
[188] بشكل عام، فإن الحركات الإسلامية السنية – على عكس تيار المستقبل – تدعو إلى فرض الشريعة الإسلامية؛ ونشر القيم والأخلاق الإسلامية؛ وفي النهاية تأسيس الدولة الإسلامية. رغم ذلك، وفي حين أن بعضها، مثل السلفيين، تتبنى منظوراً طائفياً وتعبر عن عدائها للشيعة والعلويين، فإن حركات أخرى (بما في ذلك حزب التحرير الإسلامي والجماعة الإسلامية) لا تفعل ذلك.
[189] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، طرابلس، عكار، صيدا، أيار/مايو 2006 – أيلول/سبتمبر 2009.

كثيرون الأمل بالحركات الإسلامية واحتشدوا حول تيار المستقبل".[190]

غير أنه سيكون من الخطأ تجاهل المشهد السني. لقد كان صعود نجم تيار المستقبل على حسابه حالة شاذة، بالعديد من الأشكال، ويمكن أن تعزى إلى السياق الخاص الذي شهد صعود نجم الحريري. عندما تعود الطائفة إلى تراثها المتمثل في قدر أكبر من التعددية، يمكن توقع أن تعود الشخصيات الدينية للاضطلاع بدور متجدد. إن تراجع حدة التوترات الطائفية مصحوباً بخطوات لتطبيع العلاقات السورية – اللبنانية يمكن أن يؤدي بجمهور تيار المستقبل الأكثر تشدداً إلى الابتعاد عنه. كما يمكن للخلافات السنية – السنية أن تعود للظهور، مما سيجعل من الصعوبة بمكان على تيار المستقبل أن يظل هذا التجمع الواسع للحساسيات السنية المتنوعة والمتناقضة أحياناً كما هو الآن.[191] بعض المتشددين الإسلاميين الذين كانوا يشعرون بأنهم مقيدين بالحضور السوري الطاغي ومن ثم بهيمنة تيار المستقبل، يعتقدون بأن ثمة فصلاً جديداً على وشك البداية. حتى أن بعض الشخصيات الإسلامية بدأت فعلاً بالتوصل إلى تقييم مفاده أن ما حصلت عليه مقابل تحالفها مع تيار الحريري أقل مما توقعت.[192] عضو مجلس النواب عن الجماعة الإسلامية قال:

> يعترف العديد من الإسلاميين بأنهم أخطؤوا في السماح لتيار المستقبل باحتكار المشهد. إنهم يدركون الآن أن مواقف التيار والتزاماته لا تتمتع دائماً بالمصداقية. هناك تعطش لقدر أكبر من التعددية بين السنة.[193]

في غياب أحزاب سياسية علمانية حقيقية، وبالنظر إلى سطحية العلاقات الزبائنية التي تميز جزءاً كبيراً من السياسة في لبنان، فإن اللاعبين الدينيين يمثلون قوة محركة هامة في أخلاقيات وممارسات الطائفة. من خلال تفاعلهم الوثيق والمنتظم مع الطائفة السنية من خلال المساجد، والمدارس والجامعات الإسلامية أو الشبكات الاجتماعية الخاصة، يساعد هؤلاء في تعبئتها وكذلك في تشكيل منظورها ورؤيتها للعالم. وبحكم المكانة الأخلاقية التي تتمتع بها الشخصيات الإسلامية، فإن بوسعها أن تشرعن أو تنزع الشرعية عن بعض الرؤى والممارسات. مئات آلاف الأشخاص يؤمون المساجد لأداء صلاة الجمعة كل أسبوع، وهو ما يشكل منبراً هاماً لإيصال الأفكار السياسية، والاجتماعية والدينية. بشكل عام، فإن الشخصيات الإسلامية يمكنها أن تصل إلى جمهور جيد الإصغاء وأن تنقل إليه رسائل مختلفة، وحتى متناقضة: تدعوه إلى العمل المسلح، أو تناشده الهدوء، تخفيف حدة التوترات الطائفية أو تعميقها.[194]

غير أن المؤسسات الإسلامية تعاني من خلل وظيفي كبير، مما يثير الشكوك حول قدرتها على لعب دور فعال ومفيد.

1. دار الفتوى

تعتبر دار الفتوى المؤسسة الرسمية التي تمثل المسلمين السنة في لبنان، وبالتالي فهي التعبير الديني المنظم الأكثر أهمية في الطائفة. يرأس الدار المفتي العام (الذي يعرف أيضا بمفتي الجمهورية)، ينتخب من قبل هيئة من الزعماء السياسيين والدينيين السنة تعينها الدولة.[195] وتتمتع دار الفتوى بوزن كبير بين السنة بشكل عام وزعمائهم الدينيين بشكل خاص. على حد تعبير عضو مجلس النواب عن الجماعة الإسلامية، "يعترف سنة لبنان بشكل عام بمصدرين للسلطة: السياسي، المتمثل في رئيس الوزراء، والديني المتمثل في دار الفتوى".[196]

المفارقة أن مركزية دار الفتوى تتضح بمقدار واتساع النقد الذي تواجهه. وتنقسم الشكاوى ضدها إلى ثلاثة أنواع: أولاً، لقد تراجعت السلطة الدينية لدار الفتوى بسبب اتهامات الفساد التي تساق ضدها بشكل متكرر سواء من قبل رجال الدين أو المواطنين العاديين.[197] ثانياً، وكنتيجة جزئية لذلك، فقد فشلت في فرض نفسها بوصفها المؤسسة الإشرافية والرقابية العليا التي يفترض أن تكونها. وتتمثل الأثر في التكاثر الفوضوي للمراكز الدينية الصغيرة التي ترفض دار الفتوى المصادقة على الشهادات التي تمنحها، وحيث يجري تقديم

---

[190] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم حزب التحرير الإسلامي، طرابلس، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2009.

[191] انظر الجزء II، د. أعلاه.

[192] لا شك أن الجماعة الإسلامية شعرت بخيبة أمل من حقيقة أنها فازت بمقعد برلماني واحد. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في الجماعة الإسلامية، بيروت، أيلول/سبتمبر 2009 – أيار/مايو 2010. بعد الانتخابات، قال الحليف السلفي الرئيسي لتيار المستقبل، داعي الإسلام الشهال، بأن تيار الحريري لم يكن "عادلاً مع السلفيين. فهو لم يحترم حقوقهم ولا قدّر وزنهم الانتخابي بشكل صحيح، رغم التنازلات التي قدموها". نقلاً عن صحيفة *الأخبار*، 23 حزيران/يونيو 2009. على حد تعبير إسلامي متشدد مقرب من تيار المستقبل، "ثمة استياء كبير بين الإسلاميين اتجاه تيار المستقبل بسبب محاولاته للسيطرة عليهم وتهميشهم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[193] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو مجلس النواب عن الجماعة الإسلامية، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[194] في أعقاب الاشتباكات بين حزب الله وتيار المستقبل في أيار/مايو 2008، دعا داعي الإسلام الشهال، وهو شخصية سلفية، إلى الجهاد المسلح، www.alarabiya.net/programs/2008/10/18/58458.html، في حين أن الجماعة الإسلامية أصدرت مناشدة للهدوء والحوار. "حماية المقاومة بالالتفاف حولها". الجماعة الإسلامية، بيروت، 16 أيار/مايو 2008.

[195] المرسوم الذي يحكم مكانة دار الفتوى يصف المفتي على أنه "الزعيم الديني للمسلمين"، ويكون مسؤولاً في المحصلة عن المؤسسات الدينية السنية. وبشكل خاص فهو مسؤول عن إدارة الوقف؛ ويصدر الفتاوى الدينية، وهو المسؤول عن تعيين الموظفين الدينيين والإداريين في دار الفتوى وترفيعهم وصرفهم من الخدمة (مثل الأئمة والخطباء والمدرسين). انظر المرسوم رقم 18 على الموقع: www.studies.gov.lb/Cultures/arLB/tContent/Hierarchy/The%20%20Presidencies/Ministries%20Council/Directorates/Pages/Dar%20al%20Fatwa.aspx. كما أن هناك مفتين مرتبطين بدار الفتوى في مناطق جبل لبنان، وطرابلس، والبقاع، وصيدا، ينتخبون من قبل هيئات محلية تتكون من شخصيات سياسية ودينية وممثلين عن مختلف الاتحادات الإقليمية والغرف المهنية.

[196] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 3 أيار/مايو 2010. إحدى الشخصيات الدينية المقربة من السلفيين قالت: "دار الفتوى مؤسسة رئيسية بالنسبة لكل السنة، بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية أو الدينية. وهي تمثل السنة في علاقتهم مع الطوائف الأخرى وتدير الشؤون الدينية للطائفة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[197] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ومتشددين سنة، طرابلس وبيروت، آذار/مارس 2009.

دروس أكثر تطرفاً وتشدداً.[198] يزعم مدير سابق لإحدى المؤسسات الدينية أنه "يمكن لأشي شخص أن يدير مدرسة أو معهداً دينياً خاصاً به. هناك عدد غير محدود من القرارات الاعتباطية التي تتخذ من قبل أفراد بسبب الافتقار إلى السيطرة المركزية على برامجها أو مناهجها".[199] ثالثاً، وبالنظر إلى ما سبق، فقد حاولت دار الفتوى التعويض عن افتقارها للشرعية بين القواعد ببناء صلات أقوى مع القيادات السياسية للطائفة، ما جعلها تتورط في الاستقطاب السياسي والديني في البلاد.

ومع تعمق المأزق الداخلي، باتت المؤسسة مصدراً للشرعية الدينية لتيار المستقبل، خصوصاً باللجوء إلى خطاب تقسيمي وطائفي صريح. البعض في المعارضة اتهمها بأنها تؤجج النيران الطائفية.[200] شيخ مستقل من طرابلس قال: "إن التوترات بين تيار المستقبل وحزب الله، التي كانت في البداية ذات طبيعة سياسية، بدأت تدريجياً تتخذ طابعاً دينياً. وقد ساعدت مشاركة المشايخ وعلماء الدين في تحويل الصراع إلى صراع ذي صبغة طائفية واضحة".[201]

لقد قلل تورط دار الفتوى في الصراع السياسي في لبنان من قدرتها على أن تكون صوتاً يدعو إلى الوسطية. رغم ذلك، وبحكم مكانتها التاريخية ووظائفها الجوهرية، تظل حتى اليوم واحدة من مؤسسات قليلة قادرة نظرياً على الانخراط مع نطاق واسع من الحركات الإسلامية، بما فيها الحركات السلفية. وهذا دور ينبغي أن تستعيده وتمارسه. عضو مجلس النواب عن الجماعة الإسلامية قال:

> يمكن لدار الفتوى أن تلعب دوراً موحداً بالنسبة للإسلاميين السنة. من خلال الحوار، يمكن لها أن تنشر رؤية أكثر اعتدالاً للإسلام وتشجيع اللاعبين الدينيين على احترام الخطوط الحمر – بما في ذلك رفض التكفير، وقبول تعددية الأمة، والاعتراف بالدولة ومؤسساتها واحترامها والتسامح مع الآخرين.[202]

2. الجماعة الإسلامية

يمكن المجادلة أن الجماعة الإسلامية، الفرع اللبناني للإخوان المسلمين، هي الأفضل تنظيماً بين الحركات الإسلامية السنية، رغم أنها، وعلى عكس نظرائها في مصر وسورية، وفلسطين والأردن، فشلت في تحقيق شعبية جماهيرية كبيرة. وهذا يعكس جزئياً استراتيجيتها في التركيز على الطبقات المتوسطة وإهمال الشرائح الاجتماعية المحرومة. كما أنه نتاج لظروفها التاريخية. فخلال الحرب الأهلية، على سبيل المثال، تركت المجال للحركات السنية القومية العربية وبقيت هي في الظل، بينما في أعقاب الحرب، عانت من الوجود العسكري السوري. وطوال وجودها عانت من سلسلة من الانقسامات التي أضعفت الحركة وقلصت من جاذبيتها رغم سعيها البراغماتي لتعديل أيديولوجيتها لتتناسب مع الواقع المحلي باعتناق شكل معتدل من الإسلام.[203] بصرف النظر عن الحجم، فإن ما يجعل الجماعة الإسلامية لاعباً يتمتع بأهمية لا تتناسب مع حجمها هو قدرتها الكامنة على المساعدة في جسر الانقسام السني – الشيعي وبالتالي تطبيع العلاقات الطائفية.

منذ عام 2005، والحركة تتخذ موقفاً معارضاً للموقف الأيديولوجي العام للطائفة. منذ البادية، شكلت مقاومة إسرائيل ودعم القضية الفلسطينية الأهداف السياسية الرئيسية للجماعة الإسلامية. ودفعت الحركة هذا الالتزام خطوة أبعد في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982، عندما أسست فرعاً عسكرياً – قوات الفجر – لمقاومة الاحتلال. وكانت هذه القوات نشطة نسبياً، خصوصاً حتى عام 1985؛ عندما شنت آخر هجوم انتحاري في عام 1990، قبل حلها طبقاً لاتفاق الطائف. حافظت الجماعة الإسلامية في أعقاب ذلك على دعمها لكفاح حزب الله، حتى عندما تبنت هي نفسها موقفاً سياسياً صرفاً، وشاركت في الانتخابات النيابية عام 1992 وفازت بثلاثة مقاعد.[204]

مع اتساع شقة الخلاف الطائفي وتعمق انعدام الثقة بحزب الله بعد اغتيال الحريري، كان على الجماعة الإسلامية السير على خيط رفيع، وتحقيق التوازن بين علاقاتها بتيار المستقبل ودعمها للحركات الفلسطينية المتشددة وحزب الله الشيعي. أدت مواجهات بيروت في

[198] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في الجماعة الإسلامية، وشيخ سلفي، ومدراء ومدرسين في المدارس الدينية، بيروت وطرابلس، كانون الثاني/يناير 2008 – أيار/مايو 2010.

[199] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع بلال هدارة، طرابلس، آذار/مارس 2008.

[200] في أعقاب سلسلة من الاشتباكات بين تيار المستقبل وأنصار 8 آذار في عام 2008، قال مفتي الجمهورية، محمد رشيد قباني، "لقد سأم السنة هذا الوضع ... لقد تحول هذا الإضراب إلى عصيان مدني وغزو لشوارع بيروت، تقوم به عصابات مسلحة. ... كنا نعتقد أن حزب الله منشغل بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وفجأة نجده يتحول إلى قوة متشددة تحتل بيروت، ولذلك فإننا نناشد الدول العربية والإسلامية مساعدتنا في وقف هذا الاعتداءات التي تضر بلبنان". www.cnn.com/2008/WORLD/meast/05/07/beirut.strike/index. html. عدد من أفراد المعارضة السنة انتقدوا اقتراب المفتي المفرط واعتماده الكلي على سعد الحريري. الوزير السابق عبد الرحيم مراد اتهم المفتي بـ "الإسهام في تعميق الانقسامات بين المسلمين والتخلي عن دوره التوحيدي". رئيس الوزراء الأسبق، سليم الحص، وصفه "مفتي السراي. إنه ليس مفتي الجمهورية أو مفتي جميع المسلمين". نقلاً عن صحيفة *الأخبار*، 15 أيار/مايو 2007. وعلى نطاق أوسع، جادل احد مسؤولي الجماعة الإسلامية بأن المفتين أسهموا في "إعادة تأجيج الخلاف السني – الشيعي". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، نيسان/أبريل 2009.

[201] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 17 نيسان/أبريل 2009. هناك بعض الاستثناءات البارزة. مفتي طرابلس، مالك الشعار – الذي عكس انتخابه في كانون الثاني/يناير 2008 إجماعاً بين اللاعبين السياسيين والذي يتمتع بالتالي بمساحة أكبر للمناورة – عمل بجد على تخفيف حدة التوتر بين السنة والعلويين في أيلول/سبتمبر 2008، بعد شهور من الاشتباكات. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مستشاري الحريري، بيروت، آذار/مارس 2008؛ وأحد مستشاري ميقاتي، آذار/مارس 2008؛ وقاض في دار الفتوى، بيروت، 1 أيار/مايو 2010. انظر أيضاً: صحيفة *المنار*، www.almanar.com.lb/newsSite/EpisodeDetails.aspx?EpisodeID=238&language=ar.

[202] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عماد الحوت، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[203] على سبيل المثال، تعترف الحركة بالدولة ومؤسساتها، وتحترم التعددية الدينية وتحث على وضع حد للطائفية السياسية بغية تخفيف حدة "التوترات الطائفية الداخلية". كما أنها ترفض العنف إلا كوسيلة لمقاومة الاحتلال. انظر موقع الجماعة الإسلامية على الإنترنت: www.al-jamaa.org/pageother.php?catsmktba=15.

[204] في عام 1972، شاركت الحركة في الانتخابات النيابية؛ وخسر مرشحها الوحيد. www.al-jamaa.org/pageother.php? catsmktba=15.

أيار/مايو 2008 واستيلاء حزب الله على المدينة إلى إفشال هذا الجهد، وفرضت على الحركة التحزب مع أحد الطرفين في منافسة طائفية كانت تصبح أكثر حدة.[205] في المحصلة، ورغم الاختلاف المستمر على قضايا جوهرية – كيفية مقاربة القضية الفلسطينية، والصراع ضد إسرائيل والعلاقات مع الغرب[206] – فإن الجماعة الإسلامية اختارت التحالف مع تيار المستقبل.[207] بالمقابل، فإن بناء علاقة أقوى مع الجماعة الإسلامية والنسخة المعتدلة نسبياً من الإسلام التي تتبناها أثبتت فائدتها لتيار الحريري، لأنها أرضت جمهور تيار المستقبل الأكثر تديناً دون إثارة مخاوف شركائه المسيحيين.

أدت إعادة صياغة الجماعة الإسلامية لتحالفاتها إلى انزعاج بعض مؤيديها،[208] في حين كان المردود الانتخابي متواضعاً.[209] في محاولتها للمناورة بين شراكتها غير الطبيعية مع تيار المستقبل ومنظورها الأيديولوجي المتميز، وقعت في تناقض لم تستطع تسويته حتى الآن.[210] جدير بالملاحظة أن العضو الوحيد في مجلس النواب عن الجماعة الإسلامية – الذي انتخب على قائمة تيار المستقبل – امتنع عن التصويت لصالح الحكومة التي يقودها الحريري، ما شكل خطوة أولى حذرة نحو فرض الحركة لرؤيتها المستقلة لمزيد من التعددية السياسية السنية.[211] شرح ذلك قائلاً:

ليس هناك تناقض. تيار المستقبل والجماعة الإسلامية حركتان مستقلتان ولذلك السبب نختلف حول عدد من القضايا. الآن، ومع نزوع الأوضاع إلى التهدئة، وتراجع الاستقطاب الطائفي، بتنا في وضع يمكننا تدريجياً من التعبير عن اختلافاتنا بشكل أكثر وضوحاً. الإسلاميون يريدون أن يروا درجة أكبر من التعددية داخل الطائفة – ليس من أجل معارضة تيار المستقبل، بل للتكامل معه.[212]

3. السلفيون[213]

السلفية التبشيرية

وصلت السلفية التبشيرية إلى أوجها في مطلع التسعينيات، عندما اختار بعض المشايخ الشباب الذين كانوا قد عاشوا لبعض الوقت في السعودية، أن يعودوا إلى وطنهم في نهاية الحرب الأهلية. وكان ذلك على وجه الخصوص في طرابلس[214] و مجدل عنجر[215] في البقاع. لم يمض وقت طويل قبل أن تتحول حظوظ الحركة. في عام 1995، قامت مجموعة سلفية جهادية باغتيال زعيم الأحباش، وهي جمعية إسلامية موالية لسورية، على أساس أنها كانت تشكل بدعة.[216] ورداً على ذلك، قامت السلطات اللبنانية وأجهزة الأمن السورية بقمع السلفيين، دون تمييز كبير بين تعبيراتهم العنفية وغير العنفية.[217] وتسارعت هذه النزعة المتردية اعتباراً من عام 1999 بعد قتال دموي بين مجموعة جهادية والجيش اللبناني. جرى اعتقال عشرات

[205] تحدث أحد زعماء الحركة عن مخاوفه فيما يتعلق "بالتقدم الذي يحرزه الشيعة في لبنان، ومحاولات الشيعة اختراق الدوائر السنية وجهود حزب الله لاستمالة مشايخ السنة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، نيسان/أبريل 2009.

[206] عضو المكتب السياسي في الحركة قال: "الأمر كما يراه تيار المستقبل هو أن حماس تنتمي إلى المحور الإيراني – السوري، في حين نستمر نحن في إقامة علاقات متينة مع المنظمة الفلسطينية. نحن نتشاطر نفس الرؤية حول القضية الفلسطينية، وندعم مقاومتها ولدينا نفس المنظور الإسلامي. موقف تيار المستقبل السلبي في حين كان الفلسطينيون يذبحون خلال الحرب على غزة لم يكن مقبولاً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع حسين حمادة، بيروت، 26 كانون الثاني/يناير 2009.

[207] خلال عهد رفيق الحريري، كان تيار المستقبل والجماعة الإسلامية يتعاونان على المستوى المحلي ولأغراض انتخابية. في عام 2005، قاطعت الحركة الانتخابات، كي "لا تلعب دوراً في الاستقطاب". انظر صحيفة *السفير*، 25 تموز/يوليو 2009.

[208] عدد من متشددي وقادة الجماعة الإسلامية عبروا عن عدم ارتياحهم لقرار التحالف مع تيار المستقبل. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، آذار/مارس 2008؛ ومع مسؤول في الجماعة الإسلامية، بيروت، 24 آذار/مارس 2008. عضو سابق في الجماعة جادل أنها بالقيام بذلك فإنها كانت تتحالف بشكل غير مباشر مع الولايات المتحدة. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، نيسان/أبريل 2009.

[209] في عام 2009، لم تشارك الحركة حتى في المفاوضات التي سبقت الانتخابات بين تيار المستقبل والشخصيات الإسلامية البارزة في الشمال. فاز مرشحها بـ 8.5 بالمئة من الأصوات في طرابلس، وبأقل من 8 بالمئة بين السنة. الانتخابات النيابية اللبنانية 2009 ، (محافظة الشمال)، ص. 17-21. على نحو مماثل، ورغم وجودها في صيدا، لم تستطع التنافس مع العائلات المحلية القوية. وافقت على عدم تسمية مرشح في المدينة مقابل تضمين أحد أعضائها على قائمة تيار المستقبل في بيروت 3.

[210] على النقيض من حلفائها السنة، على سبيل المثال، شنت حملة قوية لصالح حماس خلال الحرب على غزة في كانون الأول/ديسمبر 2008 – كانون الثاني/يناير 2009. ملاحظات مجموعة الأزمات، بيروت وصيدا.

[211] انظر:
www.almustaqbal.com/storiesprintpreview.aspx?storyid=386101.

[212] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عماد الحوت، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[213] السلفية هي شكل متزمت من الأصولية تستحضر الآباء المؤسسين للإسلام، ما يسمى "بالسلف الصالح"، ومن هنا اسم الحركة، وبشكل رئيسي النبي محمد (ص) والخلفاء الراشدون للأمة الإسلامية الأصلية، من أجل تحديد المبادىء الجوهرية للإسلام. وتصر الحركة على قراءة حرفية للنص الإسلامي وتدين جميع أشكال البدع. تركز السلفية التبشيرية على الوعظ والتبشير كوسائل لتعزيز وإعادة إحياء الدين والمحافظة على تماسك وتلاحم جماعة المؤمنين، في حين أن السلفية الجهادية تعتقد بأنها منخرطة في الدفاع العسكري (أو في بعض الأحيان توسيع) "دار الإسلام" – وهي المنطقة من العالم التي خضعت تاريخياً للحكم الإسلامي - و "الأمة" ضد الكفار. لتحليل أكثر عمقاً للتيارات الإسلامية، انظر:
Crisis Group Middle East/North Africa Report N°37, *Understanding Islamism*, 2 March 2005.

[214] جاء التعبير الأول عن السلفية في لبنان في أربعينيات القرن العشرين. كانت جهود الشيخ سالم الشهال محدودة من الناحيتين الأيديولوجية والتنظيمية. كان عليه أن ينتظر عودة ابنيه من السعودية – راضي الإسلام وداعي الإسلام – كي يعاد إحياء الحركة بشكل ما في المدينة الشمالية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع سالم الشهال، وداعي الإسلام الشهال، وراضي الإسلام الشهال، وحسن الشهال، طرابلس، أيار/مايو 2006 – نيسان/أبريل 2008.

[215] في البقاع، اضطلع بالقيادة في البداية شيخ كردي هو زهير شاويش. نظراً لزواجه من امرأة من مجدل عنجر، فقد اختار السكن هناك. وقد وفرت عودة عدنان أمامة من السعودية للسلفية التبشيرية زخماً أكثر جدية في المنطقة. صحيفة *الحياة*، 26 كانون الثاني/يناير 2006.

[216] الاسم الكامل للجمعية هو جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية.

[217] بعد عام من اغتيال زعيم الأحباش، قامت الحكومة بحل المنظمة التبشيرية الأكثر أهمية وهي جمعية الهداية والإحسان. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ من طرابلس، أيار/مايو 2006 – نيسان/أبريل 2008.

من المتشددين، من السلفيين الجهاديين والتبشيريين. وتم ضبط الأنشطة السلفية على نحو محكم مما دفع العديد من النشطاء إلى العمل السري.[218]

واجهت الحركة السلفية انتكاسة أخرى لأسباب تتعلق بالسياق الدولي. أدت هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001 في الولايات المتحدة، وما تبعها من تفجيرات في الرياض عام 2003،[219] إلى انخفاض كبير في الدعم المالي الخارجي للجوامع ومراكز التعليم السلفية. تم خفض المنح الخارجية، خصوصاً من السعودية، أو أخضعت لشروط مختلفة، وبشكل أساسي التعهد بعدم وجود نزعات جهادية لديها.[220] طبقاً لمدير سابق لأحد المعاهد السلفية:

> لم نستطع الحصول على تمويل لمشروعين. تم التحقيق بمشاريعنا القديمة من قبل المانحين الذين تفحصوا بمزيد من التدقيق كيفية إدارة المراكز، وأين تذهب الأموال، والأكثر أهمية من ذلك، الميول السياسية للمعاهد. كان علينا أن نثبت أننا لا ندعم بن لادن.[221]

مع تراجع الدعم السعودي، تنامت السلفية المدعومة كويتياً.[222] لكن بالنسبة للسلفيين، فإن الصورة تظل قاتمة. ترك قرار سورية عام 1996 بإغلاق جمعية الهداية والإحسان، وهي المؤسسة السلفية الأكثر أهمية في لبنان، السلفيين دون تنظيم يجمعهم، وباتوا أكثر هشاشة وعانوا من تراجع التمويل ما ألحق ضرراً بقدرة الشبكات التبشيرية على حشد المؤيدين. وبحكم أنها بطبيعتها لا تتمتع بهيكيلية قوية،[223] وجدت السلفية التبشيرية العديد من مشايخها يذهبون كل في طريقه؛ وبالتالي تجد عدداً من المشايخ يدعون أنهم الممثلون الشرعيون الوحيدون للسلفية في لبنان.[224]

بعد فترة من التشتت، عادت السلفية إلى الظهور في أعقاب اغتيال الحريري. وجدد تيار المستقبل صلاته بالقادة السلفيين، يجمعهم في ذلك عداوتهم لسورية وللطائفة الشيعية.[225] قدم تيار المستقبل المساعدة المالية لبعض هؤلاء القادة،[226] وبالمقابل طلب منهم تيار الحريري تخفيف غلواء خطابهم وتعاليمهم.[227] بالنسبة للناشطين، فإن العرض – الذي أتى بعد سنوات من الاضطهاد والمضايقة – كان موضع ترحيب.

لكن كان له ثمن. نظرياً، ترفض السلفية ليس فقط المشاركة السياسية النشطة بل أيضاً الولاء لأي زعيم سياسي لا ينسجم تماماً مع تفسيرها للشريعة الإسلامية – وهو حظر ذا أهمية خاصة في السياق اللبناني متعدد الطوائف. ولذلك، فبين قواعد السلفيين، فإن فكرة أن بعض قادة الحركة دخلوا في صفقات مع أعضاء الطبقة السياسية تسببت في قدر كبير من عدم الارتياح.[228] ما فاقم في الأمور هو أن تيار المستقبل

---

[218] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ سلفيين، بيروت وطرابلس، آذار/مارس 2008 – أيار/مايو 2010.

[219] حدثت التفجيرات في أيار/مايو؛ واستهدفت السيارات المفخخة تجمعات سكنية للمغتربين فقتلت أكثر من 30 شخصاً وجرحت أكثر من 100. تفجير آخر حدث في تشرين الثاني/نوفمبر، واستهدف أيضاً تجمعاً سكنياً للمغتربين. قتل في التفجير 18 شخصاً وجرح عشرات آخرين. السلطات السعودية اتهمت القاعدة. صحيفة *الشرق الأوسط*، 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2003.

[220] على سبيل المثال، فإن التمويل الممنوح لمعهد الأمين – الذي كانت قد قدمته هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، وهي منظمة خيرية سعودية – تراجع بشكل كبير منذ عام 2004. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع بلال هدارة، المدير السابق لمعهد الأمين، آذار/مارس 2008. مستشار مقرب من سعد الحريري أقر بأن الدعم السعودي للسلفيين اللبنانيين كان في تراجع. "تأتي أموال أكثر الآن من الإمارات العربية المتحدة والكويت. بشكل عام انخفضت المعونات الخارجية بشكل كبير منذ هجمات 11 أيلول/سبتمبر". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008.

[221] المرجع السابق. طبقاً لشيخ سلفي، "قبل عام 2001، لم يكن هناك أي ضبط لما يجري تدريسه في المعاهد. ونتيجة لذلك، كانت المناهج متأثرة بوجهات النظر المتشددة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع سمير كمال الدين، طرابلس، آذار/مارس 2008. ناشط إسلامي أضاف: "بعد 2001، كثف المانحون الدوليون تدريجياً رقابتهم، إلا أن ذلك لم يكن مصحوباً بقدر أكبر من إشراف الدولة على المؤسسات الدينية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع إيهاب البنا، بيروت، 11 أيار/مايو 2010. طبقاً لعدد من المشايخ، والناشطين الإسلاميين، فإن العديد من المعاهد الأقل شهرة لا زالت تنشر تعاليم متشددة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس وبيروت، أيار/مايو 2006 – أيار/مايو 2010.

[222] يتمحور هذا التيار بشكل رئيسي حول جمعية إحياء التراث الإسلامي، التي قادها رجل الأعمال الطرابلسي صفوان الزعبي، حتى نيسان/أبريل 2010، عندما حل محله نديم حجازي، وهو شيخ طرابلسي. تمول الجمعية عدة مشاريع، بما فيها جامعة ومدارس سلفية ومراكز طبية وجوامع. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع صفوان الزعبي، طرابلس، آذار/مارس 2008. انظر أيضاً كتيب الجمعية: "Trajectoire de la Guidance et du Bien". تلعب الجمعية دوراً هاماً في طرابلس، حيث يطلب رؤساء البلديات والمخاتير والمواطنون العاديون من قادتها الدعم المالي وأشكال أخرى من الدعم. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو في المجلس الإسلامي الأعلى، طرابلس، 15 نيسان/أبريل 2008.

[223] السلفية بشكل عام تعارض، على أساس ديني، تشكيل الأحزاب أو الهيكليات السياسية. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ سلفيين، طرابلس، أيار/مايو 2006.

[224] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع داعي الإسلام الشهال، وحسن الشهال، وصفوان الزعبي وغيرهم من المشايخ المحليين، طرابلس، أيار/مايو 2006 – آذار/مارس 2008.

[225] بشكل عام، تظهر السلفية عداء مستحكماً حيال التشيع. في آب/أغسطس 2008، وقع عدد من الممثلين السلفيين – بمن فيهم حسن الشهال وصفوان الزعبي – اتفاقاً مع حزب الله يهدف إلى وضع حد "للتحريض الطائفي" ورفض "جميع الأعمال العدوانية من فصيل مسلم ضد فصيل آخر". أدينت الوثيقة على نطاق واسع من قبل تيارات إسلامية وسلفية أخرى، وتم تعليق الوثيقة بشكل فوري تقريباً. انظر صحف *الحياة*، و*السفير*، و*النهار*، 19 آب/أغسطس 2008.

[226] تم الاعتراف بالدعم المالي الذي قدمه تيار المستقبل من قبل المشايخ السلفيين ومسؤولي التيار على حد سواء. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006 – نيسان/أبريل 2008. وكان من بين المستفيدين داعي الإسلام الشهال، وهو أحد القادة السلفيين الرئيسيين في طرابلس، إضافة إلى أسامة وعدنان أمامة في البقاع.

[227] زعم أحد مستشاري سعد الحريري أن زعيم تيار المستقبل طالب المجموعات السلفية التبشيرية بتغيير برنامجها – وبشكل أساسي التخلي عن ممارسة التكفير – ووضع معاهدها تحت سلطة دار الفتوى. هذا لم يحدث، وهكذا فإن العلاقات بين السلفيين والحريري تدهورت. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، آذار/مارس 2008. ولم يحدث أي تقدم حتى تاريخ ذهاب هذا التقرير إلى المطبعة.

[228] عدد من الطلاب السلفيين الذين كانوا يداومون في المعاهد السلفية عبروا عن انتقادات قوية للمصالحة مع تيار الحريري وتذمروا من الدعم المعلن لقادتهم لسعد الحريري. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006 – نيسان/أبريل 2008.

فقد اهتمامه بسرعة بتهدئة الحركة التبشيرية.[229] وكان عدد أتباعها قليلاً نسبياً وغير ميالين للتصويت، مما جعلهم غير مهمين لأي استراتيجية انتخابية.[230] ناشط مقرب من السلفيين في طرابلس قال: "لقد استعمل الحريري السلفيين عندما احتاجهم؛ ثم رماهم".[231] في الوقت الراهن، يبدو أن هدف التيار يتركز بشكل ضيق على المحافظة على ولاء القادة السلفيين الذين يدفع لهم.[232] غير أن استمالة هؤلاء دفعت سلفيين آخرين أكثر تشدداً وإحباطاً إلى التوجه نحو أشكال منفصلة من النشاط الجهادي.

السلفية الجهادية

ظهرت المجموعات السلفية الجهادية اللبنانية في البداية خلال الحرب الأهلية. قبل عام 1990، كانت تضم بشكل رئيسي حركات إسلامية غير سلفية تدعو إلى الكفاح المسلح ضد إسرائيل،[233] وكذلك فلسطينيين من مخيمات اللاجئين.[234] وخلال العقد التالي، أسهمت عودة المقاتلين من أفغانستان في ظهور حركة سلفية جهادية ازدهرت بشكل رئيسي بين الفئات السنية المحرومة في شمال لبنان والبقاع.

كان عدد ما سمي بـ "الأفغان العرب" قليلاً[235] لكنهم وجدوا أرضية خصبة نسبياً في بلد كان قبل وقت ليس بالطويل مرتعاً لعدد كبير من الميليشيات التي كان أفرادها السابقون يجدون صعوبة في الاندماج الاجتماعي من جديد. وانطلقت سلسلة من الحوادث العنيفة، بدأت باغتيال نزار الحلبي، رئيس جمعية الأحباش عام 1995.[236]

بين 31 كانون الأول/ديسمبر 1999 و 5 كانون الثاني/يناير 2000، شهدت منطقة الضنية فوق طرابلس اشتباكات عنيفة بين الجيش ومجموعة من المتشددين الجهاديين. قتل في الحادث حوالي 30 شخصاً.[237] كان ذاك أهم حادث تتورط فيه منظمة جهادية لم يكن مقرها في مخيم فلسطيني. أسست المنظمة في عام 1997 من قبل باسم الكنج (أبو عائشة)، وهو لبناني كان قد قاتل في أفغانستان.[238] جند أبو عائشة عشرات من النشطاء من الأحياء الفقيرة في طرابلس، وعكار والضنية نفسها.[239] في عام 2002 و عام 2003، قامت مجموعة تتخذ من طرابلس مقراً لها بهجمات ضد سلاسل محلات تجارية أميركية وبريطانية، بما في ذلك ماكدونالدز.[240]

---

[229] في عام 2007، عين المفتي العام أسامة الرفاعي مفتياً في عكار. السلفيون الذين اعتبروه معادياً لقضيتهم أدانوا الاختيار وأرسلوا وفداً لمقابلة سعد الحريري. رغم ذلك ظل الرفاعي في منصبه. خلال الانتخابات التي جرت لاختيار مفتي طرابلس، جرى تهميش المشايخ السلفيين، طبقاً لداعي الإسلام الشهال، الزعيم السلفي الطرابلسي. انظر:
www.now lebanon.com/Arabic/NewsArchiveDetails.aspx?ID=26211.

[230] عدد من القادة السلفيين – سالم الشهال، وداعي الإسلام الشهال وحسن الشهال قدموا ترشيحاتهم في مختلف الانتخابات البرلمانية. هؤلاء يشكلون الاستثناء. بشكل عام فإن الجهود المبذولة لترجمة الولاء السياسي إلى دعم سياسي يصطدم بآراء القواعد السلفية التي تعلمت معارضة أي شكل من أشكال الممارسة السياسية. بلال هدارة، المدير السابق لمعهد الأمين، أقر بذلك قائلاً: "إننا نفتقر إلى خطة ملموسة. ليس لدينا برنامج. نعرف أن معظم السلفيين لا يصوتون، ولذلك لا نستطيع فعلاً تعبئة مؤيدينا. رغم ذلك، نحن مقتنعون بضرورة إيجاد طريقة للدفاع عن الإسلام تختلف عن الطريق الموجودة حالياً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، آذار/مارس 2008.

[231] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت، 3 أيار/مايو 2010.

[232] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في تيار المستقبل، آذار/مارس 2008.

[233] وتضم هذه بشكل خاص قوات الفجر (الفرع العسكري للجماعة الإسلامية) وحركة التوحيد الإسلامي، وهي مجموعة موالية لسورية، وكلاهما ظهرت في مطلع الثمانينيات. كان الهدف الرئيسي للأولى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. أما الثانية، التي سعت لفرض نظام الحكم الإسلامي، فقد قاتلت ضد الوجود العسكري السوري وضد عدد من الميليشيات اللبنانية. بين عامي 1982 و 1985، كانت طرابلس مسرحاً لمعارك شرسة بين التوحيد وسورية، قبل أن تحكم القوات السورية سيطرتها على المدينة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين في الجماعة الإسلامية، بيروت وطرابلس، آذار/مارس 2008 – نيسان/أبريل 2009؛ ومع رئيس التوحيد وأحد المتشددين السابقين، طرابلس، آذار/مارس 2008. انظر
Fidaa Itani, *Jihadist in Lebanon, From Al-Fajr Forces to Fatah al-Islam*, (Beirut, 2008).

[234] See: Crisis Group Middle East Report N°84, *Nurturing Instability: Lebanon's Palestinian Refugee Camps*, 19 February 2009, p. 24. See also: Bernard Rougier, *Le Jihad au quotidian*, (Paris, 2004).

[235] انظر صحيفة *الحياة*، 27 كانون الثاني/يناير 2006

[236] ارتكبت الجريمة مجموعة جهادية فلسطينية هي عصبة الأنصار، رغم أن متشددين فلسطينيين (بمن فيهما مقاتل أفغاني سابق) شارك أيضاً في ارتكاب الجريمة. أظهر الحادث العلاقة بين جهادية المخيمات الفلسطينية والدوائر اللبنانية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ سلفيين تبشيريين وجهاديين، المخيمات الفلسطينية في طرابلس، أيار/مايو 2006 – آذار/مارس 2009. انظر: Bernard Rougier, op. cit., pp. 108-111.

[237] كان بينهم جنود، ومتشددين ومدنيين. انظر: صحف *الحياة*، *والنهار والسفير*، 1-11 كانون الثاني/يناير 2000.

[238] ولد أبو عائشة في عام 1965 في إحدى قرى عكار. في سن العشرين حصل على منحة دراسية من مؤسسة الحريري للدراسة في الولايات المتحدة. في نفس الوقت تقريباً، بات أكثر قرباً من الدوائر الدينية في الولايات المتحدة. في عام 1989، ذهب إلى بيشاور في باكستان من أجل التدريب العسكري والديني في أفغانستان والبوسنة. عاد إلى لبنان عام 1996. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ وناشطين إسلاميين، طرابلس، بيروت وعكار، أيار/مايو 2006 – تشرين الثاني/نوفمبر 2009. انظر صحيفة *النهار*، 11 تموز/يوليو 2000.

[239] طبقاً للحكومة، فهي "منظمة إرهابية ذات صلات بالقاعدة كانت تعد لانتفاضة تهدف إلى إقامة إمارة إسلامية في الشمال". انظر صحيفة *النهار*، 11 تموز/يوليو 2000. كان أفراد المجموعة يحضرون الدروس الدينية ويتدربون على استعمال الأسلحة الخفيفة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء ومحتجزين سابقين من مجموعات الضنية، وبيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006. عدة مشاركين وأشخاص مقربين من أبي عائشة وصفوا أهداف الحركة على نحو مختلف على أنها – بين أشياء أخرى، تقاوم إسرائيل في جنوب لبنان، وتدرب الجهاديين على القتال في الشيشان على حماية أنفسهم من مضايقات قوات الأمن اللبنانية والسورية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات المالية مع محتجزين سابقين ومشايخ، بيروت وطرابلس، كانون الثاني/يناير 2006 – نيسان/أبريل 2008. صحيفة *النهار*، 11 تموز/يوليو 2000؛ كتيب نشر من قبل أهالي المحتجزين:
"Dinniyeh detainees: Truth and Tragedy" (undated); "Lebanon: Torture and unfair trial of the Dhinniyyah detainees", Amnesty International, May 2003.

[240] انظر: *L'Orient le Jour*، 9 نيسان/أبريل 2003.

نشأ أول ظهور جهادي ملموس في البقاع من عودة مقاتل أفغاني سابق هو مصطفى رمضان (المعروف أيضاً بأبي محمد اللبناني)، الذي يعتقد أنه كان مقرباً من رئيس القاعدة في العراق في ذلك الحين، أبو مصعب الزرقاوي.[241] في عام 2003، شرع أبو محمد في تنظيم شبكته الخاصة به، مركزاً بشكل رئيسي على تجنيد وتدريب وإرسال المقاتلين الجهاديين إلى العراق.[242] يذكر أن البقاع صدّر عشرات المتطوعين لمحاربة القوات الأميركية.[243] في عام 2004، اعتقلت قوات الأمن حوالي خمسة عشر متشدداً يشتبه بارتباطهم الوثيق بأبي محمد. واتهمت الحكومة المجموعة، المعروفة بـ "شبكات إسماعيل الخطيب و أحمد ميقاتي"،[244] بشن هجمات ضد السفارات الأجنبية والمباني الرسمية في لبنان.[245] ويذكر أن هذه الشبكات المختلفة واجهت صعوبات هائلة في التوصل إلى بنية متسقة وموحدة. أحد المشايخ ذوي العلاقات الوثيقة بالجهاديين قال:

> يعاني الجهاديون من مشكلة في تنظيم أنفسهم. لديهم في كثير من الأحيان أجندات متعارضة. البعض يعمل ضد جماعات محلية؛ من بينها جزء يركز على الشيعة، وجزء على المسيحيين، وجزء ثالث على الدولة ورابع على القوات الأجنبية الموجودة في لبنان. يرغب بعضها في المشاركة في الجهاد الدولي. كما أن المجموعات وقادتها ينافس بعضهم بعضاً، مما يفضي إلى انقسامات بين الشبكة الواحدة.[246]

وصلت الظاهرة الجهادية إلى أوجها – وأخطر مراحلها – مع فتح الإسلام، التي كلف تدميرها من قبل الجيش في عام 2007 مئات من القتلى وتدمير مخيم نهر البارد، حيث التجأت المجموعة.[247] جمعت فتح الإسلام الوجوه المختلفة للجهادية: الأفغان العرب؛ والمتشددين اللبنانيين المتأثرين بالحركات المحلية؛ والمتطوعين الذين يتم تجنيدهم عن طريق الإنترنت من سائر أنحاء العالم العربي؛ ونشطاء المخيمات الفلسطينية؛ والعائدين من العراق.[248] كانت فتح الإسلام معروفة للجميع، وتُستعمل من قبل عدة جهات وغير خاضعة لسيطرة أحد، كما هو مبين أدناه، وبالتالي كانت تفتقر إلى رؤية واضحة وانتهت في معمعة من العنف العدمي الذي أظهر التشرذم، والتشوش والمشاكل التي تعاني منها السلفية الجهادية.

يعكس تطور بعض الحركات الجهادية في لبنان باتجاه العنف الدموي والفوضوي – الذي ظل تحت السيطرة رغم ذلك – المقاربة الغامضة والمتناقضة لسلطات البلاد واللاعبين السياسيين. بادئ ذي بدء، وكما رأينا، فإن فقدان الشرعية، والمصداقية والسلطة التي عانت منها نظيرتها التبشيرية، دفع بعض النشطاء الذين فقدوا ثقتهم بهذه المجموعات إلى مواقع أقرب من المجموعات ذات الطبيعة الجهادية.[249] كان رد الدولة المدفوع آنياً بشكل رئيسي – من اعتقالات عشوائية، والاعتقال لمدة غير محدودة، واللجوء إلى التعذيب – عمق الإحساس بالاضطهاد بين المتشددين الذين كانوا يفتقرون إلى أي احتمال واقعي لإعادة التأهيل.[250] رأى العديد من السلفيين – المقتنعين بأن التهم التي سيقت ضد المتشددين فيما يتصل بقضية الضنية كانت ملفقة – أن الحادث يمثل رمزاً للظلم مما دفعهم إلى الانضمام إلى جماعات مشابهة.[251] على حد تعبير أحد مشايخ طرابلس:

> شعر الإسلاميون بالأسى نتيجة أحداث الضنية. كان الجميع يتحدث عن مصير المتشددين، خصوصاً في الدوائر الدينية وفي

---

[241] كان أبو مصعب الزرقاوي سلفياً جهادياً أردنياً نقل عملياته إلى المناطق ذات الأغلبية السنية في العراق بعد حرب عام 2003، بعد أن فر من أفغانستان عام 2001 ومن ثم من كردستان العراق في آذار/مارس 2003. قام بتأسيس تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. انظر Crisis Group Middle East Report N°52, *The Next Iraqi War? Sectarianism and Civil Conflict*, 27 February 2006, p. 14.

[242] صحيفة *الحياة*، 26 كانون الثاني/يناير 2006.

[243] توفي أبو محمد اللبناني، مع ابنه وعدد من اللبنانيين من المناطق السنية في البقاع، في العراق عام 2005. المرجع السابق.

[244] الخطيب، المتحدر من مجدل عنجر، توفي في السجن بعد عدة أسابيع من اعتقاله. أحمد ميقاتي، المولود في طرابلس، كان قد قاتل في الضنية.

[245] صحيفة *المستقبل*، 4 كانون الثاني/يناير 2005.

[246] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع شيخ وثيق الصلة بالمجموعات الجهادية، صيدا، كانون الأول/ديسمبر 2008.

[247] أفضى الصراع إلى مقتل 450 مدنياً، وجندياً ومتشدداً إسلامياً؛ وتدمير المخيم الفلسطيني والمناطق المحيطة به؛ وترحيل ما يقارب 6,000 أسرة؛ وخسائر اقتصادية هائلة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين فلسطينيين وممثلي الأونروا، نيسان/أبريل – أيلول/سبتمبر 2008. انظر أيضاً "A Common Challenge, a Shared Responsibility" تقرير قدمته الحكومة اللبنانية في مؤتمر المانحين في فيينا، 23 حزيران/يونيو 2008. انظر Crisis Group Report, *Nurturing Instability*, op. cit, pp. 25-28.

[248] قاتل عشرات اللبنانيين في العراق، أكثر مما قاتلوا في أفغانستان. في مرحلة مبكرة، زعم أن سورية – التي كانت لا تزال تسيطر على لبنان – والسلطات اللبنانية كانت تسهل مرور المقاتلين إلى العراق. أحد شيوخ صيدا قال: "كان هناك اتفاق ضمني بين الجهاديين من ناحية والسلطات السورية واللبنانية من ناحية أخرى فيما يتعلق بشرعية الجهاد في العراق". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، 23 كانون الأول/ديسمبر 2008.

[249] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ سلفيين، ومتشددين إسلاميين، ونشطاء، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006 – أيار/مايو 2010.

[250] تبقى إجراءات الاعتقال والاحتجاز اعتباطية بشكل كبير في لبنان. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع نشطاء حقوق إنسان؛ ومسؤولين في منظمات غير حكومية، طرابلس، شباط/فبراير – آب/أغسطس 2008. انظر أيضاً: "Lebanon: Torture and Unfair Trial of the Dhinniyyah Detainees"، مرجع سابق. عند إطلاق سراح المتشددين الإسلاميين من السجن، فإنهم يتركون لشأنهم دون أي مساعدة في إعادة تأهيلهم. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ومتشددين إسلاميين ومعتقلين سابقين، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006 – أيار/مايو 2010.

[251] كان العديد من النشطاء الإسلاميين اللبنانيين مقتنعون بأن المخابرات السورية واللبنانية فبركت الأدلة ضد مجموعة الضنية. يدّعون بأن أفراد المجموعة انسحبوا إلى الجبال كي يعيشوا طبقاً لمبادئ دينهم وهرباً من موجة من الاعتقالات استهدفت كل ذي لحية. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ونشطاء إسلاميين، بيروت وطرابلس، أيار/مايو 2006 – نيسان/أبريل 2009. زعم عدد من الإسلاميين الذي التقتهم مجموعة الأزمات بأن المجموعة كانت قد وافقت على تفكيك معسكرها غير أن أفرادها حوصروا وهوجمت من قبل الجيش. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع خالد ضاهر، وداعي الإسلام الشهال، وكلاهما لعبا دور الوسيط في ذلك الحين؛ ومع إمام جامع على صلة وثيقة بالمجموعة؛ ومع معتقلين سابقين، طرابلس وبيروت، أيار/مايو – نيسان/أبريل 2009. تشكلت مجموعة بدأت في البداية باستهداف سلاسل المحلات التجارية الغربية للحصول على المال لأهل معتقلي الضنية. أحد المشايخ المقربين من الشبكة قال: "كان هدفها الرئيسي الانتقام للأخوة في الضنية الذين قتلوا ظلماً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، أيار/مايو 2006.

الخطب الدينية. وقد ساعد هذا في دفع عدد كبير من الإسلاميين، من الشمال إلى البقاع، إلى التطرف.[252]

تعزز شعور الإسلاميين بأنهم ضحايا بشعورهم المتزايد بالتهميش والإذلال. كان معظم أفراد هذه المجموعات يتحدرون من المناطق الفقيرة التي عانت من مزيج خطير من الظروف المعيشية المريعة، والخدمات الاجتماعية غير الكافية ونقص المدارس. الدولة كانت غائبة فعلياً عن هذه المناطق، بما في ذلك فيما يتعلق بفرض القانون وحفظ النظام على المستوى اليومي. في هذه المناطق بالذات التي كان وجود الدولة فيها شبه معدوم لجأت الحكومة – التي كانت تواجه تهديداً أمنياً في إطار الفراغ الأمني العام – إلى القمع على نطاق واسع، فكان الأثر العام هو دفع أولئك الذين رغبت في إخضاعهم إلى التطرف. بالنسبة للعديد من الشباب الفقراء الساخطين، باتت العودة إلى التشدد الديني عملاً من أعمال التحدي، وتعبيراً عن ثأرهم لكرامتهم التي كانوا يشعرون بأنها تهان يومياً.[253]

نزع اللاعبون من جميع ألوان الطيف السياسي إلى تأييد الجهادية عملياً حتى عندما كانوا يشجبونها بقوة لفظياً. في عام 2005، أصدر مجلس النواب عفواً عن إسلاميين كانوا قد اعتقلوا لصلتهم بأحداث الضنية ومجل عنجر،[254] على الأرجح من أجل احتواء واستمالة عدة مكونات من الطائفة السنية في وقت سادت فيه الاستقطابات والمواجهات الطائفية الحادة. وعلى نحو مماثل، قدمت بهية الحريري التمويل لمجموعة جهادية فلسطينية، هي جند الشام، على أمل التوصل إلى تهدئة مؤقتة وهشة.[255] عندما كانت سورية تحتفظ بوجود عسكري قوي، سمحت هي أيضاً للمقاتلين بالوصول إلى العراق من لبنان، لإعاقة الجهود الأميركية وأيضاً كوسيلة لإدارة التعامل مع أي تهديد إسلامي محتمل.[256]

تعتبر حالة فتح الإسلام أكثر الأمثلة مناسبة لفك غموض هذه الحالة. حتى عندما كانت الأحزاب المختلفة تتهم بعضها بعضاً بتشجيع ودعم الحركة،[257] فإن تاريخها يشير إلى مسؤولية جماعية عن ذلك. منذ البداية، كان ظهور فتح الإسلام واضحاً للجميع، وتطلّب توسعها على الأقل قدراً كبيراً من الإهمال المفرط، إن لم يكن مشاركة فعالة من قبل سورية، وتيار المستقبل، ودوائر السلفية التبشيرية الطرابلسية، والأجهزة الأمنية اللبنانية ومختلف الفصائل الفلسطينية في نهر البارد.[258] يبدو أن كلاً من هذه الأطراف توقعت في وقت ما أن تستفيد من فتح الإسلام، حتى عندما بات من الواضح على نحو متزايد أنها أصبحت خارجة عن سيطرة الجميع.

وبشكل عام، فإن إذكاء الطبقة السياسية لنيران الاستقطاب الطائفي، سهّل نمو التيار الجهادي. مثال مناسب آخر يتمثل في المواجهات التي جرت في أواسط عام 2008 بين السكان السنة في باب التبانة والسكان العلويين في جبل محسن، وهما حيان من أحياء طرابلس. عكس القتال، الذي استمر لمدة شهرين، تفاعلاً بين حالة الاستياء التي كانت لا تزال كامنة تحت السطح من الحرب الأهلية، والخطاب الجهادي الأكثر تشدداً[259] والمناخ الطائفي المتردي في البلاد.[260] كانت المعركة بين باب التبانة وجبل محسن، أكثر من أي شيء آخر، امتداداً لمواجهات بيروت عام 2008، عندما استولى حزب الله على أجزاء كبيرة من المدينة. أحد المشايخ السلفيين قال في تموز/يوليو من ذلك العام: "ما حدث في العاصمة كان إذلالاً. الجميع يدعو إلى الانتقام. حتى نساءنا يقمن بحثنا على الرد".[261] رغم تهور الطبقة السياسية وقصر نظر الدولة، والرد الذي اقتصر على الجانب الأمني، فإن الظاهرة الجهادية ظلت إلى حد بعيد تحت السيطرة. ويعود ذلك، في جزء كبير منه، إلى نطاقها الجغرافي المحدود نسبياً. في البقاع، كما في الجنوب، حد الوجود القوي لحزب الله فعلياً من تقدم الجهاديين. في طرابلس وشمال لبنان، كبحت المأساة التي ضربت نهر البارد جماح الجهاديين. رغم شعور كثيرين بالغضب واتجاههم إلى التطرف بسبب قسوة القمع الذي فرضته الدولة، فإن الأحداث أدت إلى مستوى أكثر حدة من المراقبة والقمع. كما أن هذه الأحداث أبرزت الكلفة الباهظة لأي مواجهة مستقبلية. الأكثر من ذلك، هو أن

[252] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، أيار/مايو 2006.

[253] أحد سكان باب التبانة – أحد أكثر الأحياء السنية حرماناً في لبنان – شرح ذلك قائلاً: "يشعر سكان باب التبانة بالإهانة من الطريقة المتعالية التي ينظر بها إليهم سكان طرابلس واللبنانيون عموماً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، باب التبانة، أيار/مايو 2006. بالنسبة للبعض، بدا الانتماء إلى جماعة متشددة واعتناق القضية الجهادية الوسيلة الوحيدة للتحرر الاقتصادي والاجتماعي. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مشايخ ونشطاء جهاديين، طرابلس، أيار/مايو 2006. عندما قتل قائد القاعدة في العراق، أبو مصعب الزرقاوي عام 2006، أعلن السكان السنة لأحياء باب التبانة الحداد. بائعو البسطات في الشوارع أعادوا تسمية عرباتهم "أبو مصعب". مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع بلال شعبان، قائد حركة التوحيد في طرابلس، 22 آذار/مارس 2008؛ ومع أحد سكان باب التبانة، 12 أيار/مايو 2010؛ ومسؤول في منظمة غير حكومية يعمل في باب التبانة، بيروت، 13 أيار/مايو 2010؛ وناشط إسلامي، بيروت، 11 أيار/مايو 2010.

[254] يتفق معظم المراقبين على أن حقوق المعتقلين المتورطين في أحداث الضنية، وكذلك أعضاء شبكات خطيب وميقاتي جرى انتهاكها. طبقاً لتقارير موثوقة، فقد تم تعذيبهم واعتقالهم دون محاكمة. رغم ذلك فإن إطلاق سراحهم كان لدوافع واعتبارات سياسية لا قانونية. خلال جلسته الأولى، وافق مجلس النواب الذي انتخب في عام 2005 على العفو في نفس الوقت الذي وافق فيه على العفو عن سمير جعجع، الزعيم المسيحي للقوات اللبنانية. بدا القرار للإسلاميين وللمعارضة على أنه لفتة تقدير للجماعات الإسلامية على دعمها للحريري. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، بيروت وطرابلس، شباط/فبراير 2006 – كانون الأول/ديسمبر 2009.

[255] اعترفت بهية الحريري بأنها دفعت لأعضاء المجموعة الفلسطينية المحلولة جند الإسلام لإقناعهم بمغادرة تعمير، وهو حي في صيدا مجاور لمخيم الفلسطينيين في عين الحلوة. يعتقد خصوم الحريري أنه وبالنظر لتفاقم التوترات بين السنة والشيعة، فقد كانت مصممة على تجنب تجدد الصراع بين الدولة والإسلاميين السنة. انظر: صحيفة *السفير*، 5 حزيران/يونيو 2007.

[256] انظر: Group Report, *Nurturing Instability*, op. cit, p. 25. See also fn. 248.

[257] وسط التوترات الداخلية المتفاقمة، اتهم فريق 14 آذار سورية بصراحة بترتيب ظهور فتح الإسلام في لبنان من أجل زعزعة استقرار البلاد؛ وعلى النقيض من ذلك، حمّل فريق 8 آذار المسؤولية لتيار المستقبل والسعودية على دعم المجموعة الإسلامية كقوة مقاتلة ضد الشيعة.

[258] لمعرفة المزيد عن فتح الإسلام، انظر: Crisis Group Report, *Nurturing Instability*, pp. 25-26.

[259] داعي الإسلام، وهو شيخ إسلامي طرابلسي، قال: "بعد أحداث 7 أيار/مايو ، حذرت مؤيدينا من أن خصومنا سيسعون للتركيز على طرابلس والشمال. قلت لهم حينذاك: إذا هوجمتم، فلكم الحق في الدفاع عن أنفسكم طالما أن الدولة لا تستطيع ولا تريد الدفاع عنكم. كنت قد أصدرت فتوى، ولا زلت متمسكاً بها". www.alarabiya.net/ programs/2008/10/18/58458.html.

[260] أحد سكان باب التبانة الشباب قال: "لو أعطيتني سلاحاً، وكنت أواجه إسرائيلياً وشيعياً، لأطلقت النار على الشيعي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، آب/أغسطس 2008.

[261] مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، طرابلس، 17 تموز/يوليو 2008.

تدمير نهر البارد أسهم ليس فقط في حرمان الجهاديين من ملاذ آمن مثالي، بل انه أعاق الوصول إلى مخيمات فلسطينية أخرى، وبذلك المعنى كان نهاية لعدم قابلية المخيمات للاختراق.[262]

ومنذ ذلك الحين، ضاعفت الفصائل الفلسطينية الأخرى من يقظتها.[263] في عين الحلوة على سبيل المثال، أظهرت الفضائل المتشددة استعداداً أكبر للعمل يداً بيد مع الجيش اللبناني ومع الفصائل الفلسطينية المعارضة لها مثل فتح من أجل المحافظة على الأمن.[264] ادعى زعيم الفصيل السلفي الرئيسي، عصبة الأنصار، بأنه من "المحرم دينياً" مقاتلة الجيش اللبناني.[265]

لبنان ليس ملاذاً للجهاديين كما هي حال أفغانستان، أو الشيشان أو العراق، التي اجتذب كل منها شبكات تعمل عبر البلدان. لقد حدثت عدة هجمات، غير أنها كانت في معظم الأحيان محدودة من حيث النطاق والتعقيد.[266] لم تظهر القاعدة على وجه الخصوص اهتماماً جدياً.[267] ولا يعود السبب إلى قلة الأهداف المحتملة: فإسرائيل على الحدود، وقوات الأمم المتحدة (التي تحتوي عدداً من الوحدات الأوروبية) عززت من وجودها العسكري على الحدود الجنوبية في أعقاب حرب عام 2006.[268] غير أن الجهاديين لم يتمكنوا حتى الآن من تأسيس حضور هام ودائم؛ حيث أن أي نشاط مسلح يثير رداً فورياً وقوياً، وعندما انخرط الجهاديون في القتال، دفعوا ثمناً باهظاً. بعد كل واحدة من المواجهات الآنفة الذكر، عزز الجيش من سيطرته على الجهاديين والمتعاطفين المحتملين معهم أو على أولئك المشكوك في أنهم يتعاطفون معهم. رغم أن المكونات الضرورية لحركة جهادية أوسع انتشاراً تبقى موجودة، وأن المخاطر لا ينبغي إهمالها، فإن تطور حركات أكثر تنظيماً لا يبدو أمراً محتملاً في المستقبل المنظور.

VI. خلاصة

تم قلب صفحة جديدة عندما استلم سعد الحريري مهام منصبه كرئيس للوزراء، منهياً العهد الذي كان قد أطلقه اغتيال والده. غير أن لبنان يظل في مرحلة انتقالية: التنظيم الداخلي للطائفة السنية، وعلاقاتها مع مجموعات داخلية أخرى، وعلاقاتها مع اللاعبين الخارجيين وموقفها من القضايا الإقليمية أبعد ما تكون عن السكونية. إن الخيارات التي ستتخذها في هذه الأوجه المختلفة تمثل مكوناً آخر في معادلة مع عدد من الأجزاء المتحركة واتجاه كلي لا يمكن التنبؤ به.

لقد مر سعد الحريري نفسه بمرحلة تحول كبيرة، من دور يتسم بالمواجهة حدد جزءاً كبيراً من سلوكه وحد من خياراته إلى موقع على مفترق طرق لعدد من الديناميات الهامة: فهو يرأس حكومة وحدة وطنية تحاول المحافظة على توازن داخلي دقيق؛ وهو يمثل حلاً وسطاً بين سورية والسعودية وفي نفس الوقت يتمتع بثقة الغرب؛ كما أن له مصلحة في الاستقرار والاعتدال في بيئة تبقى في جوهرها راديكالية ومتقلبة؛ ويعتمد نجاحه كرئيس للوزراء، جزئياً، على عكس اتجاه التعبئة الطائفية نفسها التي أتت به إلى السلطة وضمنت صعود نجمه والسيطرة على الطائفة السنية.

كي ينجح الحريري في الحكم بنجاح، فإن هذا التحول بحاجة الآن إلى التعزيز والتعميق. سيعتمد الأمر كثيراً على قدرته على النأي بنفسه أكثر عن السياسات الطائفية والزبائنية، وأن يدير العملية الشائكة لتطبيع العلاقات السورية – اللبنانية. وثمة تغيرات لا بد أن تطرأ على المشهد السني، لتحويل تيار المستقبل إلى حزب مؤسسي وتنظيم الساحة الدينية التي أصبحت، في السنوات الأخيرة، أقل انضباطاً وأكثر فوضوية وبالتالي أكثر قابلية لإذكاء النزعات المتشددة.

بيروت/بروكسل، 26 أيار/مايو 2010

---

[262] رغم أن اتفاق القاهرة – الذي منح، بموجب بنود أخرى، الفلسطينيين الحق بفرض الأمن والنظام في المخيمات الفلسطينية – قد تم إلغاؤه في عام 1987، اتفقت الأطراف بعد الحرب الأهلية أن الجيش اللبناني لن يدخل المخيمات بل سيبقى على مشارفها. انظر: Crisis Group Report, *Nurturing Instability*, op. cit., p. 12.

[263] مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين ونشطاء فلسطينيين، المخيمات الفلسطينية وبيروت، نيسان/أبريل – كانون الأول/ديسمبر 2008.

[264] انظر: Crisis Group Report, *Nurturing Instability*, op. cit, pp. 27-28.

[265] صحيفة *الأخبار*، 6 كانون الأول/ديسمبر 2008.

[266] تضمنت هذه هجمات ضد قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة (اليونيفيل) وإطلاق صواريخ استهدفت إسرائيل، وأعلنت مجموعات جهادية مسؤوليتها عن كلتا العمليتين.

[267] لم تعلن القاعدة مسؤوليتها عن أي من الهجمات المذكورة أعلاه، رغم أن بعضها ارتكبه أفراد مرتبطون بقادة القاعدة.

[268] خوّل مجلس الأمن قوات اليونيفيل عام 1978 بالمحافظة على السلام والأمن في أعقاب انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان. بعد حرب 2006، تم رفع عديدها من 2,000 إلى 12,000 جندياً، وكلفت، بين أشياء أخرى، بمراقبة وقف الأعمال العدائية؛ ومصاحبة ودعم القوات المسلحة اللبنانية في الانتشار في سائر أنحاء الجنوب؛ وتقديم المساعدة لضمان وصول المساعدات الإنسانية للسكان المدنيين والعودة الطوعية والآمنة للمهجرين". قرار مجلس الأمن رقم 1701؛ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ميلوش ستروغار، مدير الشؤون السياسية والمدني في اليونيفيل، بيروت، 17 أيار/مايو 2010.

الملحق آ

خارطة لبنان



Courtesy of The General Libraries, The University of Texas at Austin

Base 802856AI (C00059) 5-02